أبو الحسن علي الحسني الندوي

أسبوعان في المغرب الأقصى

رحلة ومذكرة ومشاهدات وانطباعات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عن الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الامين محمد وآله وصحبه اجمعين .

أما بعد ، فان هذا الكتاب الذي بين يدي القــراء الكرام ، هو المذكرة التي سجلها كاتب هذه السطور ــ بعد عودته من الرحلة ــ في ضوء الملاحظات والارشادات التي قيدها على عجل ابن اختي العزيز الاستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، رئيس القسم العربي في دار العلوم ندوة العلماء ، وزميلي ومرافقي في هذه الرحلة التاريخية والذي دفعني الى نشرها واخراجها في صورة كتاب ، ان فيها ما يحرك همم الاسلاميين ويشحذ عزائمهم ، وان فيها موعظة وذكرى للذاكرين .

وقد رأى المؤلف ان يتصدر المذكرة استعراض موجز لتاريخ المغرب والتطورات والتقلبات التي عاشها عبر الادوار ، وقصة الرقي والانحطاط التي مــر بها والحضارة والثقافة والمدنية التي عاش في حضنها ، حتى لا يشعر القارئ بالصعوبة في فهم القصة وأدوارها حين لا يكون قد اطلع على الخلفيات ، وقد عهد بذلك الى الاخ العزيز الفاضل الاستاذ شمس تبريز خان عضو المجمع الاسلامي العلمي بلكهنئو ، فقام بذلك خير قيام ، وزادت به قيمة الكتاب العلمية .

كما رأى ان يلحق به الكلمة التي بدأها في الرباط ،

بعنوان "نحن الآن في المغرب" ، والتي ذكر من خلالها أبناء المغرب الاقصى ، بتاريخهم الزاهر الزاهي وماضيهم المجيد العتيد ، كما حذرهم من الاخطار التي تحدق بهم ، وكانت تأتي عليهم والواجبات التي تعـود عليهـم ، والمسئوليات التي تقع على عواتقهم ، وقد جاءت فيها عصارة دراسة المؤلف وتجاربه ، وأخلص فيها النصح الى القادة وأولياء الامور .

وقد زادت قيمة الكتاب زيادة كبيرة مقدمة صديق المؤلف المرحوم الاستاذ عبد السلام القدوائي الندوي ، وكانت له عناية بالمغرب الاقصى واسبانيا ، وتاريخها منذ البداية ، وعاش على الحب لهذه الارض ، وله نظر عميق واطلاع دقيق على تاريخها ، ونحن نشكره على هذا التكرم شكرا يفيض به القلب .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب في "اردو" لغة مسلمي شبه القارة الهندية بسبب قلة المواد في هذه اللغة وقلة معلومات الشعب المسلم عن اخوانهم المغاربة ، ثم رأيت أن نقلها الى العربية ونشرها في بلاد المغرب وفي العالم العربي منير للعقول ، وحافز للهمم ، فعهدت بنقله الى العربية الى الاستاذ نور عالم الاميني الندوي – وهـو مترجم قدير وكاتب أديب – فقام بهذه العملية خير قيام ، وتناولت الترجمة بالتنقيح والتهذيب ، فجاء كتاباً مستقلا كأنه ألف في العربية أصالة .

ورجوت الصديق الفاضل والعالم العامل فضيلـة الشيخ أبوبكر القادري أن يسعى في نشره في المغرب ويختار له دار نشر وتوزيع ، لينتشر الكتاب في المغرب العربي الحبيب ويتحقق غرض المؤلف ، فلبى هذه الدعوة في نشاط وحماس واستجابة كريمة كأنه كان منه عـلى ميعاد ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، فهو من كبـار

العاملين في مجال الدعوة الاسلامية ونشر الفكرة الصحيحة ، واثارة الوعي واليقظة الاسلامية ، والمؤلف شاكر لفضله ، معترف بجميله .

ونامل أن هذه المذكرة سيتلقاها القارئ الكريم كهدية ثمينة وتحفة طريفة في حفاوة واقبال ورغبة .

1401/8/3 هـ

1981/6/7 م

ابو الحسن علي الحسني الندوي

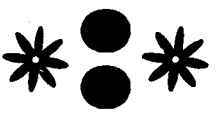

مقدمة الكتاب

بقلم الاستاذ الكبير فضيلة الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي مساعد مدير المجمع العلمي الكبير "دار المصنفين" بأعظم كره ، الهند، ورئيس القسم الديني بالجامعة الملية الاسلامية بدهلي سابقا .

منذ 60 سنة ـ وأنا في بداية رحلتي الدراسية ، لم تتوسع دراستي للغة الاردية أيضاً ـ وقع نظري في بيت أحد أقربائي على مجموعة لابيات الدكتور محمد اقبال ، معروفة باسم "شكوى" ، فقد شكا فيها الى الرب تبارك وتعالى على لسان الامة المسلمة ، ولم تكن لي قدرة بعد على فهم المعاني الشعرية الدقيقة ـ ذات مستوى رفيع ـ الا قليلا جدا ، غير انه كانت عندي هواية القراءة ، فإذا وقع بصري على كتاب ، لم يقر لي قرار حتى أتصفحه وأقلبه ، وكان اسم الدكتور محمد اقبال معروفاً لدي ، وسبق ان قرع أذني مرات عديدة نشيده الوطني الذي مطلعه :

" الصين لنا ، والعرب لنا ، والهند لنا ، وكل العالم لنا لأننا مسلمون" .

ومن هنا رحت أتصفح كل مجموعة شعرية حينما رأيتها ، على غلافها اسم الدكتور محمد اقبال ، ولم أسع الابيات فهماً ، ولكن ظللت أتغنى بها في لذة وسرور ، وقد شعرت بنشوة بالغة بصورة خاصة عندما قرأت بيتاً له ، معناه :

"اننا نحن المسلمين لم نترك بحرا من البحار ، فضلا عن البراري والقفار ، فقد خضنا بخيلنا المحيط الاطلسي الذي يسميه الناس بـ "بحر الظلمات" يشير الى القائد الاسلامي القديم عقبة بن نافع ، الذي خاض البحر الاطلسي وأراد ان يطأ بجيشه أرض اسبانيا مبدأ القارة الاوربية فما تراجع الا مضطرا أسفاً على امتداد هذا المحيط وعدم وجود الوسيلة التي تضمن لتحقيق أمنيته ، وهزني كثير التجانس الصوتي في هذا البيت ، فوقفت عليه طويلا أتغنى به ، ولم تكن عندئذ دراستي للتاريخ ، بحيث تعينني على ادراك ما يتضمنه البيت من المعاني العميقة ، وانما التذ بكلماته الساحرة ، وتخيلاته الشعرية .

وبعدما مضت على ذلك اعوام ، والتحقت بدار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو ، واتيحت لي دراسة التاريخ الاسلامي ، علمت أن هذا البيت ليس مجرد شعر يشتمل على تسجيع وقوافي ، وفكرة شعرية ، أنه ينطوي على اشارة بارعة الى حقيقة تاريخية ، لقد أحرز القائد المؤمن الشهير عقبة بن نافع انتصارا مدهشاً ، حينما انتصب لفتح افريقيا الشمالية ، وانهار أمامه العدو في مدة قليلة ، وانجرف بسيله العارم جنود الاعداء الجرارة كالزبد ، ولم يمض مدة قليلة حتى استولت الجنود الاسلامية على تونس والجزائر ، وتخطت الى مراكش ، وفي ايام قليلة وصلوا الى المحيط الاطلسي ، وكانوا مدفوعين بحب الجهاد ، والحرص على اعلاء كلمة الله في الارض ، فلم يثن البحر المتلاطم عزيمتهم ، ونزلوا فيه كالبر تماماً ، فقد كانوا يحفظون قصة فتح المدائن في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حيث كانت دجلة فائضة ، وظن العدو أن العرب سوف لا يتمكنون من التقدم الى الامام خطوة ، ووقفت دجلة حائلة في طريقهم ، لكن الفاتحين المؤمنين ما كانوا ليبالوا بمثل

هذا الحاجز ، فقد اقتحموه بخيلهم دون تلكأ ، وكاد العدو يطير فرحاً حينما رأوا ذلك من الشاطئ المحاذي ، وظنوا أنهم سيغرقون عن آخرهم في دقائق ، لكنهم فروا لا يلوون على شيء – حينما رأوا سيدنا سعد بن أبي وقاص ورفاقه من الجنود الاسلامية قد وصلوا الى الساحل تسبح بهم أفراسهم – وهم يقولون : "ديوان آمدند ، ديوان آمدند" (قد جاءت العفاريت ، قد جاءت العفاريت) .

كان عقبة بن نافع لم تغب هذه القصة عن ذاكرته ، فألقى نفسه في البحر دونما تفكير أو تأجيل ، لكن المحيط الاطلنطي لم يكن نهرا كدجلة ، مآت من الامتار يسهل عبورها ، وانما كان محيطاً هائلا يهابه الملاحون والربابنة ، فوقف بعدما تقدم خطوات ، وتضرع الى ربه قائلا : "يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك (1)" ، وقال : "اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد ، أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك(2)" .

ومنذئذ زاد اعجابي بافريقيا الشمالية ولاسيما المغرب العربي ، ثم لما قرأت تاريخ الاندلس ، وعلمت أن أولئك المجاهدين المغامرين ، والقادة الفاتحين كانوا من أبناء المغرب الذين كسروا شوكة عاهل اسبانيا "رادرك" وثلوا عرشه ، وفتحوا هذه المنطقة المخصبة الخضراء من أوربا ، ووسعوا حدود الدولة الاسلامية الى القارة الثالثة من قارات العالم .

وكل زاد في اعجابي واقبالي ، وقد أثبتت في قلبي

---

(1) ابن الاثير 3/43 نقلا عن قادة المغرب 1/110 .

(2) قادة فتح المغرب 1/110 ، 111 (محالا على رياض النفوس 1/25) ، للركن المتقاعد محمود شيت خطاب .

قصة الدور البطولي الذي قام به طريف ، والخطوة الجريئة التي خطاها طارق بن زياد ، وقصة ثقته ، وتوكله العجيب صورة للعزيمة والطموح والمغامرة ، لا تمحوها الايام والليالي، فمن كان يفكر في أن يقتحم أوربا ببضعة آلاف من الجنود ، ويجابهالعدو دون اكتراث ، بهذه القوة العسكرية الزهيدة ورغم تفاوت عظيم في السلاح والعدة والعدد ، وهو غريب لا رجاء له في العودة والفرار ، فقد قطع أسباب ذلك ، وأحرق السفن ، يقول لاصدقائه المقاتلين :

"أين المفر ، العدو أمامكم ، والبحر وراءكم" .

أنظروا كيف يكون من تملؤه الثقة بنصر الله ، والايمان بالفتح والانتصار ، ولا يجد الخوف والهيبة اليه سبيلا ، والعدو المدجج بالسلاح ، الموفور النشاط أمامه يرمقه ، ويذكر زملاءه الذين يثقون في الاسباب بمسبب الاسباب وخالقها ، وقد استطاع الدكتور محمد اقبال أن يودع هذه القصة بتمامها في ثلاثة أبيات فارسية :

"عندما أحرق طارق بن زياد السفن على ساحـــل الاندلس ، قال الرفقة ان عملك هذا لا يصح في العقل والحكمة ، اننا بعيدون عن الوطن ، كيف السبيـــل الى العودة اليه ، ان الزهد في الاسباب لا يصح في الشريعة أيضاً ، فتبسم وقال وقد قبض على سيفه : "ان كل قطعة تخضع لحكم الله وقدرته تعتبر وطناً لنا ، فنحن جنود الله ورسل دعوته ، اذا نحن سادة هذه القطعة الشرعيون الطبيعيون" .

ولا نذكر الاندلس الفردوس الاسلامي المفقود فيما يتصل بالفتح والانتصار فحسب ، بل نذكره كذلك ، فيما يتصل بالعلم والفن ، والحضارة والثقافـــة ، والابتكـــار والاختراع ، وطبيعي ان نذكر المغرب العربي عندما نذكر الاندلس ، وليس في استطاعة احد ان ينساه مهما حاول ان

ينساه ، فكلتاهما مقرونتان متصلتان ، تشاطر احداهما الاخرى كل مجال من مجالات الحياة ، فنرى في التاريخ ان الحديث عن المغرب مقرون بالحديث عن الاندلس والعكس ، في كل دور من أدوار التاريخ ، وفي كل لون من ألوان الحوادث والقصص ، سواء أكانت قصة الرقي ، أو قصة الانحطاط ، فقد كانت لقوات المغرب ، وأمواله ، ورجالات العلم والسياسة ، والحكمة والفكر ، سيطرة على الاندلس في عهد الامارة(1) أيضا ، وعندما احتاجت الامة من أجل استعادة قوتها المسلوبة الى دم فائر ، كان المغرب هو الذي أمدها بذلك ، والمغاربة هم الذين ثبتوا الاقدام حينما جاء دور الخلافة في الاندلس وهم الذين آووا عبد الرحمن الداخل الاموي ، الذي نزل عليهم متخلصاً من مخالب بني العباس ، وعلى أكتافهم دخل الاندلس ، وبالتالي اعتلى عرش "قرطبة" ، وقد أقام خلفاؤه حكومة مترامية الاطراف ، موطدة الاركان ، نشرت في أوربا الحضارة والمدنية ، ونورت جنباتها بالعلم والفن ، ولو أمعنت النظر لوجدت للمغاربة دورا بارزا في كل هذه المآثر .

ولما تهلهل نظام الحكم في الاندلس بعدما ازدهر قروناً طوالا ، وتمزقت صفحات الحكومة ، وتوزعها ملوك وأمراء ، رأى المسيحيون أنه قد آن أوان إقصاء العرب من نواحي اسبانيا كلها ، وأن تقام حكومة مسيحية شاملة ، وكانت الساعة ساعة حرجة ،فقد انقسمت الدولة العربية الى دويلات ، وتفككت عراها ، ولم تعد تقدر على مواجهة القوى المسيحية المتحدة ، وكان المسلمون فريسة انهيار

---

(1) عندما كانت الاندلس تحت الحكم المركزي في الاندلس، كانت دمشق تنصب اميرا عليها يستقل بادارتها ويقوم بشؤونها ، وذلك هو المراد من عهد الامارة .

فظيع ، ويبدو كانهم سيعودون أثرا بعد عين في أيـام عديدة ، في هذه الساعة الحساسة الحرجة تقدم عاهـل المغرب ، وجعل آمالهم هباء منثورا ، وحـول مطامحهم أضغاث احلام ، فقد كسر السلطان يوسف بن تاشفين شوكة القوات المسيحية في معركة "زلاقة" وهزمها السلطان ابو يعقوب في معركة "مرج الحديد" هزيمة نكراء لم تقم لهم قائمة الى قرون .

وكلما كنت أقرأ تاريخ هذه المناطق ، كنت أتمنى أن لو اتيح لي ان أزور هذه الارض الحبيبة ، وأراها بعيني واقبـل آثـار اقـدام الفاتحين ، واكتحـل بغبـار آثارها وموقع اقدامهم ، وكنت غارقاً يوماً في عالم الاماني هذه أذهب فيها كل مذهب اذ غلبتني عيني ، فرأيت في المنام أني في مسجد قرطبة ، وظللت أتجول في هـذا الفردوس الارضي طويلا ، واقر عيناً برؤية الآثار الطيبة التي أثبتها هناك رجال الاسلام وأشبال الاسلام ، ولـما استيقظت دامت هذه المظاهر الساحرة يهفو اليها قلبي ، وتحن اليها نفسي ، وكانت الايام العشرة الاخيرة مـن شهر رمضان المبارك والوقـت وقت السحـر ، فنهضت وتوضأت وصليت ، ودعوت الله ، وقلت يا رب اجعل هـذا الحلم حقيقة .

وكنا نعمل عندئذ في مؤسسة "تعليمـات اسلام بلكهنئو" ، وكانت المؤسسة تقوم بتعليم الرجال القـرآن الكريم عن طريق دراسة اللغة العربية ، وكانت المؤسسة تصدر جريدة نصف شهرية باسم "تعمير" ، وكنت أنا وزميلي المحترم الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي نشترك في رئاسة تحريرها ، وكان غلافها يحمل اسمينا ، وهـذه القصة كلها منشورة في صفحاتها .

وما كنت أؤمل ان هذه الرؤيا تتحقق ، ولكنه حينما

أتيح للشيخ أبي الحسن بعد أعوام أن يزور أسبانيا ، ويزور جامع قرطبة ، ومدينته الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة ، ثم زار في الايام الاخيرة المغرب ، قلت في نفسي : "هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً" .

قد شاهد أحد رئيسي تحرير "تعمير" بعينيه مـــا رآه الآخر في المنام .

انه قد تشعب الحديث ، وطال الكلام ، والقـــراء يحنون الى قراءة كتابة الشيخ أبي الحسن السلسلة الرائعة ، ولا أريد أن أحول دونهم أكثر مما كان ، فليقلبوا الاوراق وليقرأوا قصة رحلته المثيرة ، وزيارته الشائقة ، بقلم المؤلف الرحالة البليغ ، وسيجدون فيها روعة الايمان واليقين ، والتشجيع على العمل ، وفي قصص السلـــف الصالح ، يجد الخلف ما يغذي روحه ويقوي قلبه ، واذا كان الكاتب تأتي كتابته مثيرة للحنان والايمان باعثة للروح والحياة ، فلا تسأل عما يجده عقل القارئ وقلبه من لذة وسرور ، ستفتح الافكار والعواطف المتدفقة ، والعزائم المتوجة آفاق الفكر والقلب ، وتبعث على العمل ، فقد ضرب الكاتب الجواب في كل خطوة أوتار القلب ، واستطاع أن يضع أمام القارئ صورة العهد الزاهر ، وصورة عهـــد الانحطاط المحزن ، حتى يتمكن من دراسة ما يسود عصره من بؤس وشقاء ، ويستضيء في دياجير حياته بقصص العهد الغابر الزاهر ، وقد جاء في بداية الكتاب خلاصة موجزة من تاريخ المغرب الاقصى ، بقلم أحد الزملاء الفضلاء (وهو الاستاذ شمس تبريز خام) ، حتى يسهل فهم ما جاء في المذكرة من اشارات وتصريحات ، ويكون النفع أوفر وأكثر .

وأرجو أن هذه المذكرة ستلقي اقبالا لائقاً ، ينتفع بها القارئ انتفاعاً وافياً ، فإنها تحمل عبرا كثيرة ، لو قرأها القارئ بقلب شاهد ، وعين متفتحة ، فهل من مدكر ؟!

11 شعبان 1396 هـ ـ 8 اغسطس 1976 م

عبد السلام القدوائي الندوي

دارالمصنفين ـ اعظم كره

(*)

مراكش
استعراض تاريخي موجز

اذا كانت اسبانيا فردوسنا المفقود ، فإن مراكش هي الفردوس الذي استعرضناه واستردداناه ، وكانت مراكش هي مدخل المسلمين الى الاندلس ، ولما ضاقت الارض فيها على المسلمين لدى انحطاطها فإن أرض المغرب هي التي كانت ملاجئ المشردين التي احتضنتهم ، وقد ازدهرت على أرضها الكريمة ، البقية الباقية من حضارة الاندلس وثقافتها وعلى ذلك فكانت اندلساً ثانياً وخير بديل عن الاندلس الاولى .

ان مراكش (Morocco) تحمل اهمية كبيرة بالنسبة الى موقعها الجغرافي انها تقع على الجانب الغربي من قارة افريقيا ، والبحر الابيض المتوسط (Méditerranéan) والمحيط الاطلنطي (Atlantic Sea) التجاريين ، ومساحتها 556 172 ميل مربع ، وعدد سكانها الى سنة 1962 م كان حوالي عشرة ملايين نفس ، وقد صرح احمد عبد الله المسدوسي ان مساحتها كانت 680 443 ميل مربع ، وأما عدد سكانها في 1963 م فكان قد بلغ الى 000 925 11 نفس ، وأما مساحتها حسب احصائية الحكومة فهي 730 458 كلومتر مربع ، وبلغ عدد سكانها في يونيو 1971 م الى 259 379 15 نفس ، وعلى ذلك فأربى عدد سكانها على عشرين مليون نفس ، وأما موانئ مراكش الكبيرة فهي "مليلية" ، "سبتة" ، "طنجة" ، "العرائش" ، "الرباط" ، "الدار البيضاء" ، "الجديدة" "أغاديـر" ، "تطـوان" ، "القنيطـرة" "سـلا" ،

"آسفي" وما اليها ، وأما مدنها الكبيرة بعد "الرباط" وهي عاصمتها ، فهي "فـاس" و "مكناس" و "طنجة" و "الدار البيضاء" و "تطوان" و "مراكش" و "وجدة" .

مراكش ، تاريخها العريق :

يرجع تاريخ مراكش الى 500 ق م ، اذ قام "هنو" احد سكان "قرطاجنة" بالرحلة الى جبل طارق ، من اجل اقامة مستعمرة ، وقد توجه بثلاثين الفاً من الناس على ستين سفينة ، وأقام مستعمرات عديدة في أمكنة مختلفة من المغرب الاقصى .

ويرى معظم المؤرخين ان سكانها القدامى كانوا من فلسطين اصلا وهم أولئك الذين نفاهم سيدنا داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقدموا افريقيا مع قيل من الاقيال ، وقد قال ابن خلدون ان البربر هم كنعانيو الاصل ، ولكن ابن حزم يرى أنهم ينحدرون من سلالة عربية ، وحينما تالبت الاقيال على رومة وتغلبوا عليها ، بعـد فتـح "قرطاجنة" باربع وستين سنة ، وسعوا نفوذها الى بعض مناطق المغرب الاقصى ايضاً ، وحينما تضايق الرومـان بالبربر وذاقوا مرارة شرهم ، لاحقوهـم في 41 م الـى "تافيلالت" وحولوها الى ولاية رومية ، ومنذ 161 م بدأ سقوط الرومان حيث اغارت على هذه المناطق بعض القبائل الاوربية الوحشية ، ورغم ذلك استمرت حكومة الرومان الى 431 م ، ثم تغلبت عليهم القبائل الوحشية ، ثم ان الرومان استعادوا المغرب في 544 م وظلوا يحكمون عليها الى ان أشرقت شمس الاسلام في ربوعها ، ولا تزال انقاض الابنية الرومانية موجودة فيما حول "مكناس"(1) .

(1) انظر تاريخ ابن خلدون 6 ـ 103 و "تاريخ مراكش" بقلم محمد انشاء الله 1 ـ 8 (لاهور 1901) .

البـربـــــر :

البربر قوم عرفوا بالشجاعة والنخوة ، والفروسية ، وشدة الشكيمة وأسلموا بعد الفتوحـات الاسلامية وقال ابـــن خلدون انهم ارتدوا ثم استقاموا على الاسلام منذ ايام موسى بن نصير(1) .

وقد أشاد العلامة ابن خلدون بذكرهم ، وقال انهم كانوا يتمتعون بالاخلاق الحسنة ، والنخوة والثقة بالنفس ، وقرى الضيف ، والوفاء بالوعد ، والصبر والثبات ، والتسامح والعفو والصفح ، والطموح وبعد الهمة والفروسية ، ونصرة دين الله ، وكانوا بجانب العرب والفرس والرومان واليونان في كل ذلك ، ومن أجل ذلك كله ملكوا زمام الحكم ، وكان فيهم قادة فاتحون ورجال عظام مثل يوسف بن تاشفين بطل وقعة الزلاقة وعبد المؤمن بن على(2) .

بداية الفتوح الاسلامية :

في 21 ــ 22 هـ ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح عمرو بن العاص مصر وليبيا وتونس ، وغزا عبد الله بن سعد بن ابي سرح افريقيا في عشرين الفاً ، عام 27 هـ بأمر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وافتتح معظم مناطقها ، وصالح أهلها على مليونين ونصف مليون درهم سنوياً(3) ، وكان عدد جيش جرجير ملك البربر مائـــة وعشرين ألفاً ، وخرج في هذه الغزوة ممن حول المدينة

---

(1) دائرة المعارف للقرن العشرين لفريد وجدي

(2) راجع تاريخ ابن خلدون 6 ــ 104 طبع مصر .

(3) انظر البداية والنهاية 7 ــ 152 طبع 1966 م .

خلق كثير(1) ، كان فيهم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين ولذلك سمي جيش العبادلة(2) ، وفي سنة 33 هـ أعاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكرة على افريقيا حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم وأعاد النظام الى ربوعهم وأقرهم على الاسلام والجزية(3) ، وفي سنة 43 هـ غزا عبد الله غزوة "ذات الصواري" في البحر من ناحية الاسكندرية ، وواجه قسطنطين بن هرقل في خمسمائة مركب ، أو ست مائة ، وهزمهم عبد الله بمائتي مركب هزيمةنكراء (4) ، ولما عاد الى مصر من غزوة "ذات الصواري" عام 35 هـ وافاه خبر من ثار على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فخرج من مصر متوجهاً الى عثمان(5) وقتل عثمان رضي الله عنه واستخلف علي بن ابي طالب ، فعزله عن مصر عام 36 هـ بعد ان حكمها نحوا من عشر سنين(6) ، وسار عبد الله الى الرملة أو الى عسقلان لما بلغه مقتل عثمان ووقوع

---

(1) البلاذري ص 228 نقلا عن "قادة فتح المغرب" ص ـ 56 ، ج ـ 1 .

(2) قادة فتح المغرب 1 ـ 56 محالا على تاريخ ابن خلدون 2ـ 128 الملحق .

(3) نفس المصدر ص ـ 61 ، 62 .

(4) نفس المصدر محالا على الطبري 3 ـ 340 وابن الاثير 3 ـ 44 وفتح مصر والمغرب 256 والنجوم الزاهرة 1 ـ 80 .

(5) نفس المصدر ص ـ 64 محالا على النجوم الزاهرة 1 ـ 80 ، 81 .

(6) النجوم الزاهرة 1 ـ 82 .

الفتنة واعتزل الفتنة ، ولم يبايع لعلي ومعاوية ، وأقام بعسقلان ، ودعا على نفسه قائلا : "اللهم اجعل خاتمتي على صلاة الصبح" ، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ وصلى الصبح وسلم عن يمينه ، وذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه ، وذلك سنة 36 هـ رضي الله عنه وأرضاه(1) .

ويتلوه في قائمة فاتحي المغرب اسم معاوية بن خديج السكوني ، المتوفى 52 هـ الذي كان من ضباط عمرو بن العاص في فتح مصر ، ومن ضباط عبد الله بن سعد بن أبي سرح في فتح افريقيا والنوبة ، وقد غزا افريقيا ثلاث مرات ، فتح للمرة الاولى أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه في 34 هـ القيروان ، وفتح "بنزرة" في 41 هـ ثم نصبه معاوية رضي الله عنه لغزو الروم في 45 هـ وكان معه عبد الله بن عمرو وعبد الملك بن مروان فهزم جيش العدو البالغ عدده ثلاثين ألفاً عند حصن "أجم" بعشرة آلاف ، وهو الذي بعث عبد الله بن زبير رضي الله عنه لغزو "سوسة" ، ولقد بنى بناحية القرن مساكن ، وسماها قيروانا ونشر الاسلام بين البربر ، وحفر الآبار في محل القيروان ، وخلد آثارا حسنة في مصر والمغرب ، وتذكر له غزوة في 50 هـ أيضاً ، وفي 36 هـ بعث بأول مركب بحري الى "صقلية"(2) .

ثم يأتي دور عقبة بن نافع الفهري القرشي ، الذي ولد قبل الهجرة بسنة واحدة (621 م) والذي قد كتب الله له استكمال فتح قارة افريقيا ، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص في 20 هـ وتولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح "زويلة" في 21 هـ ، وخاض معارك

---

(1) قادة فتح المغرب 1 ـ 64 ، 65 .

(2) نفس المصدر انظر الصفحات 85 ، 89 .

عديدة بحرية وبرية مع الروم ، واستعمله عمرو بن العاص في عهد معاوية على افريقيا ، فجعل يتابع الفتح ، يفتح بلدا بعد بلد ، ويسائل أهل البلد "هل من ورائكم" فلئن كان الجواب بنعم تقدم ، وكان في نية عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء الافريقية ، فسأل أهل "كاوار" هل من ورائكم أحد ، فقال الدليل : "ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة راجعاً ، فمر بقصر "خاور" فلم يعرض له ولم ينزل بهم ثم سار ثلاثة أيام ، فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بماء اسمه اليوم "ماء فرس" ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الارض ، حتى كشف عن صفاة ، فانفجر الماء منها ، وأخذ الفرس يمص بذلك الماء ، وأبصر عقبة فنادى في الناس "أن احفروا" فحفروا ، وشربوا واستقوا ، فسمي ذلك المكان لذلك ماء الفرس(1) .

ومضى عقبة بجيشه الى المغرب ، وأخذ الى أرض "هوارة" وافتتح كل قصر بها ، ومضى الى "صفر" فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا الى "غدامس" فاستعاد فتحها ثانية ، وتوجه الى "قفصة" فافتتحها ، ثم افتتح "قسطيلية" ثم انصرف الى "القيروان" وكان معه عشرة آلاف فارس ، وصفى بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين "برقة" و "القيروان" وأصبحت هذه المنطقة قاعدة رصينة ، تنطلق منها القوات الاسلامية لفتح شمال "افريقيا" حتى المحيط الاطلسي .

وكانت القيروان غيضة كثيرة الاشجار ، وماوى الوحوش

---

(1) المصدر نفسه 90 ، 100 .

والحيات ، فقال له رجاله : "انك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات ، وغير ذلك من دواب الارض" ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه ، ومضى الى السبخة ، ووادیها ونادى "ايتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه" ، ونظر الناس بعد ذلك الى امر عجيب ، من ان السباع تخرج من الشعائر تحمل أشبالها ، والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها ونادى في الناس "كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا" ، فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام ، وهم ينظرون اليها ، نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر(1) .

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة 50 هـ ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وفي سنة 55 هـ استعمل معاوية بن أبي سفيان مسلمة بن مخلد الانصاري الخزرجي على مصر وافريقيا ، وعزل عقبة عن افريقيا ، فاستعمل مسلمة على افريقيا مولى له يقال له "ابو المهاجر دينار" فقدم افريقيا واساء عزل عقبة ، واستخف به وسجنه ، وأوقره حديدا ، فأقام في الحبس شهورا ثم أطلقه حين أتاه كتاب معاوية بن ابي سفيان بتخلية سبيله واشخاصه اليه(2) .

---

(1) قادة فتح المغرب 102 ، 104 محالا على رياض النفوس 6/1 ، 7 والبيان المغرب 13/1 ، 14 وآثار البلاد 242 ، وابن الاثير 184/3 واسد الغابة 420/3 ، 421

(2) البيان المغرب 14/1 وابن الاثير 184/3 ، وفتوح مصر والمغرب 29 واليعقوبي 204/2 نقلا عن المصدر نفسه

وسار عقبة الى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر ، فاعتذر معاوية اليه ووعده أن يعيده الى عمله ، ورده يزيد والياً على افريقيا ، سنة 62 هـ ، وسار عقبة الى افريقيا من الشام ، حتى قدم على القيروان ، بعشرة آلاف فارس ، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ ما معه من الاموال ، وجدد بناء القيروان ، وشيدها ونقل الناس اليها فعمرت وعظم شانها(1)" .

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل القيروان ، الى المغرب بعد أن ترك في القيروان جنداً مع الذراري والاموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا أولاده قبل مغادرته القيروان وقال لهم : "اني قد بعت نفسي من الله عز وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله" ، ثم قال : "عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا" ، ثم قال : "اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي(2)" .

ثم وصل عقبة الى "تلمسان" يفتح البلاد ، ويهزم العدو ويعلي كلمة الاسلام ورحل الى "تاهرت" متابعاً عملية الفتح والانتصار واستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : "أيها الناس ان أشرافكم وخياركم الذين رضي الله عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين ، بجنة بيعة رابحة ،

---

(1) نفس المصدر 109 ـ 107 .

(2) ابن الاثير 42/4 ، ورياض النفوس 22/1 ، نقلا عن المصدر نفسه ص 107 ، 108

وأنتم اليوم في دار غربة وانما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد الا طلباً لرضاه واعزازا لدينه ، فأبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل ان شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة ، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين(1)" .

والتقى المسلمون بعدوهم ، وقاتلوهم قتالا شديدا ، وانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم(2) ، وسار عقبة حتى نزل على "طنجة" فلقيه بطريق من الروم اسمه "بليان" وأراد عقبة فتح الاندلس ، فقال له "بليان" : "أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بينك وبين المدد" فتوجه عقبة ، فنزل على مدينة "وليلي" بازاء جبل "زرهون" وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين "سبو" و "درعة" ، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ "قصر فرعون" ، فافتتحها عقبة وغنم وسبى(3) .

فقاتل عقبة البربر ، وهزمهم وسار حتى بلغ "مالبان" ورأى المحيط الاطلسي فقال : "يا رب ! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك(4)" ،

---

(1) رياض النفوس 1/23 ، 24 .
(2) ابن الاثير 4/42 .
(3) الستقصاء 1/73 نقلا عن قادة فتح المغرب 1/109 ، 110 .
(4) ابن الاثير 3/42 ، 43 .

ثم قال : "اللهم اشهد ، اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك(1)" وجاء في دائرة معارف القرن العشرين أن عقبة ألقى فرسه في المحيط حينما بلغ "أسفي" وقال : "اللهم اني لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك تعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تعبد ولا تشرك بك شيء ، اللهم انا مدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام (2)" .

ورجع عقبة الى القيروان ، فلما انتهى الى "طنبة" آذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان فوجاً فوجاً(3) ، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد "تهوذة" وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس ، فلما رآه الروم في قلعة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن ، وشتموه وهو يدعو الى الاسلام ، فلم يقبلوا منه(4) ، وبعث الروم الى كسيلة الذي كان في عسكر عقبة مضمرا للغدر ، فلما أرسله اليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر "عاجله قبل أن يقوى جمعه" ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى ابو المهاجر ذلك تمثل بقول ابي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا
واترك مشدوداً علي وثاقيا
اذا قمت عنا في الحديد وأغلقت
مصارع من دوني تصم المناديا

(1) رياض النفوس 25/1 .
(2) دائرة معارف القرن العشرين ج ـ 8 .
(3) ابن الاثير 43/4 ورياض النفوس 25/1 .
(4) الاستقصاء 74/1 .

فبلغ عقبة ذلك فاطلقه ، وقال له : "الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وانا اغتنم الشهادة" فلم يفعل وقال : "وانا أيضاً أريد الشهادة" وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم(1) ، ومعهم عقبة وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في ارض الزاب بتهوذة سنة 63 هـ (683 م) وقبر عقبة يزار بالزاب ، كما أن احداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا بمكانهم من ارض الزاب يزارون لهذا العهد وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عـــداد المزارات(2) ، رضي الله عن عقبة وعنهم أجمعين وأرضاهم .

ولا يمكن بهذه المناسبة غض البصر عن أبي المهاجر دينار التابعي مولى مسلمة بن مخلد الانصاري ، وقدرته القيادية ومآثره الجسيمة ونشاطه العظيم في فتح المغرب الاوسط ، الذي بلغ من حماسه للجهاد الى أنه "طبق مبدأ" تحشيد القوة "قبل البدأ بحركاته ، فاستفاد من كل مقاتل مسلم ، ولم يبق في القيروان الا الشيـــوخ والنساء(3) " .

ويتلوه اسم زهير بن قيس البلوي الذي قيل فيه ان له شرف الصحبة(4) ، وقد جزم بعض القوم بصحبته

---

(1) ابن الاثير 4/43 .

(2) الاستقصاء 1/74 نقلا عن المصدر السابق ص/111 ، 112 .

(3) قادة فتح المغرب 1ـــ148 .

(4) أنظر الاصابة 3ـــ17 ، أسد الغابة 2ـــ211 ، والاستقصاء 1ـــ76 .

فقال : "هو من الصحابة(1)" ، ذلك الذي حينما أشار على عبد الملك بن مروان أصحابه بانقاذ الجيوش الى افريقيا لانقاذ المسلمين من يد كسيلة ولاعـــزاز الاسلام بها كما كان في أيام عقبة قال لهم عبد الملك : "من للامر مثل عقبة" فاتفق رأيهم على زهير ، فهزم كسيلة والروم والبربر هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وذلوا ، وفتنت فرسانهم ورجالهم وكسرت شوكتهم ، وصاروا يخافون منذئذ زهيرا والعرب خوفاً شديداً وبعد فتح "تونس" عاد الى القيروان ، فرأى بافريقيا ملكاً عظيماً ، فأبى أن يقيم بها وقال : "اني ما قدمت الا للجهاد ، وأخاف أن أميل الى الدنيا فأهلك(2) " .

ثم خاض معركة هائلة مع الروم في برقة وكـــان المسلمون في عدد قليل ، والروم في خلق عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب(3) ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية(4) ، وحصلت هذه الكارثة الفاجعة في 71 هـ .

ويتبعه اسم حسان بن النعمـــان الازدي الغساني ، الذي قال فيه عبد الملك بن مروان : "ما أعلم أحدا أكفأ بافريقيا من حسان بن النعمان الغساني(5)" استعمله عبد الملك على افريقيا في سنة 73 هـ ، انه هزم الروم في "قرطاجنة" ثم اتجه الى المرأة الكاهنة البربريـــة القوية ، الشخصية الزكية الفؤاد الكثيرة النفوذ في البربر لا يعصون لها أمرا ، التي كانت تخبر البربر بأشياء من

(1) تهذيب ابن عساكر 5ـــ393 .
(2) ابن الاثير 4ـــ44 ، رياض النفوس 1ـــ29 .
(3) البيان المغرب 1ـــ21 .
(4) ابن الاثير 4ـــ44 .
(5) رياض النفوس 1ـــ31 .

الغيب ، قد اجتمع اليها البربر بعد قتل كسيلة ، وأصبحت ملكتهم دون منازع ، وزحف اليها حسان ونزل على نهر "نيني" وزحفت اليه الكاهنة في عدد لا يحصى ، حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ، ودنا الطرفان من بعضهما ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وعظم البلاء ، وظن المسلمون انه الفناء ، وانهزم حسان بعد بلاء عظيم ، وقتل من العرب خلق كثير فسمي ذلك اليوم يوم البلاء(1) ، وسمي النهر الذي التقوا عليه "نهر البلاء(2)" وبعد خمس سنوات في 82 هـ أعاد حسان الكرة عليها وهزمها وقتلها ، وهزم في نفس السنة أسطول البطريق يوحنا (Patricius Jean) وكان حسان يفكر في انشاء ميناء جديد للاسطول البحري القوي ، فوقع اختياره على "ترشيش" التي كانت ميناء يونانية قديمة ، فبدأ تخطيط المدينة من جديد ، وبناها بناءا جديدا ، وضرب حسان السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً ، وجد في تعليم العربية للبربر ، لانها أصل الدين وجعل الفتح الاسلامي في افريقيا فتحاً (مستداماً)(3) .

ثم يأتي دور موسى بن نصير اللخمي ، ولد موسى في 9 هـ (640م) في خلافة عمر بن الخطاب ، ولاه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر فغزا "قبرس" وبنى هناك حصوناً(4) ، وفي 64 هـ شهد مع الضحاك بن قيس الفهري معركة "مرج راهط" وفي سنة 65 هـ توجه مروان بن الحاكم الى مصر ، فتملكها ، واستعمل عليها ابنه

---

(1) رياض النفوس 1ـ33 .

(2) فتح مصر والمغرب 270 .

(3) راجع قادة فتح المغرب ج ـ 1 .

(4) البداية والنهاية 9ـ171 .

عبد العزيز(1) وجعل له موسى بن نصير وزيرا ومشيرا(2) وفي سنة 71 هـ ولي عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة ، وفي سنة 73 هـ ولاه البصرة ، وجعل عبد الملك معه موسى وزيرا ومشيرا ، وجعله المسؤول الاول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق(3) ، وفي سنة 75 هـ مات بشر أمير العراقين ، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي العراق ، وأوصاه أن لا يفوته موسى لانه احتجن الاموال لنفسه حين كان والياً على خراج البصرة ، ولكن اتهامه بذلك موضع شك كبير نظرا الى استقامته ونزاهة سلوكه(4) .

وفيما بعد 84 هـ عزل العزيز بن مروان الذي كان على مصر ، حسان بن النعمان وولى مكانه موسى بن نصير على افريقيا والمغرب ، وبعدما أخضع موسى المغرب الاوسط والمغرب الاقصى تطلع نحو "طنجة" وحاصرها ، حتى افتتحها ونزلها ، ثم سار الى مدائن على شط البحر ورأس تلك المدائن "سبتة" وعليها "جيليان" (Julian) فقاتله ، فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يطقه ، وعاد موسى الى القيروان بعد ان استعمل على "طنجة" واعمالها مولاه طارق بن زياد ، وفي 85 هـ غزا موسى في بحـــر افريقيا "البحر الابيض المتوسط" فأصاب في غزوته تلك "صقلية" وافتتح مدينة فيها(5) " .

وبعدما تم فتح المغرب تاق موسى وطارق الى فتح

---

(1) العبرة 1ـــ71 وشذرات الذهب 1ـــ73 .
(2) الولاة والقضاة 47 .
(3) البداية والنهاية 9ـــ171 .
(4) قادة فتح المغرب 1ـــ223 ـــ 226 .
(5) قادة فتح المغرب 1ـــ236 ـــ 238 .

الاندلس ، وبينما كان موسى يترقب الفرصة لتحقيق هذه الامنية الحبيبة اذ وافته رسالة من "جيليان" يعرض فيها تسليم "سبتة" ويدعوه الى فتح اسبانيا ، ففي رجب 92 هـ (نيسان ـ ابريل 711 م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر ، بقيادة طارق بن زياد الليثي ، فعبر البحر من "سبتة" بجيشه في سفن "جيليان" ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه اللامع حتى اليوم أعني "جبل طارق" وتوالت الانتصارات والفتوح(1) .

كان موسى من التابعين ، ورعا تقيا ، وكانت البلاد في قحط شديد ، فامر الناس مرة بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين ، وخرج معهم الى الصحراء ، ثم صلى وخطب في الناس ، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ، فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين فقال : "هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى" فسقوا حتى رووا ورخصت الاسعار(2) .

سأله سليمان بن عبد الملك مرة : أخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم أكانت عقباً" فقال : "يا أمير المؤمنين ، ما هزمت لي راية قط ، ولا فض لي جمع ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الاربعين الى أن شارفت الثمانين(3)" .

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى في بعض المناسبات : "ما الذي كنت تفزع اليه في مكان حربك من أمور عدوك" قال : "التوكل والدعاء الى الله يا أمير المؤمنين" قال له سليمان : "هل كنت تمتنع في الحصون

---

(1) نفس المصدر 223 ـ 22 .

(2) ابن الاثير 4ـ206 ، ووفيات الاعيان 4ـ403 نقلا عن قادة فتح المغرب 1ـ291 ـ 292 .

(3) الامامة والسياسة 2ـ100 .

والخنادق ، أو كنت تخندق حولك" فقال : "كل هذا لم أفعله" قال : "فما كنت تفعل ؟" قال : "كنت أنزل السهل ، واستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله وأرغب اليه في النصر(1)" .

في 97 هـ حج سليمان ، وحج معه موسى ، فتوفي موسى في "وادي القرى" ، عن ثمان وسبعين ، رحمه الله وجعل الجنة مثواه .

في 100 هـ ولي الخليفة المؤمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله على المغرب عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي تم على يديه اسلام البربر ، لكنهم انتفضوا من حين لآخر بحكم طبيعتهم الثورية . وفي 155 هـ قضى ابن أخي المنصور ، يزيد بن حاتم على ثورة بربرية ، وجدد بناء جامع القيروان وبنى مدينة القيروان بناء جديدا

بنو أدريس :

في 169 هـ خرج اهل البيت على موسى الهادي وسار ادريس بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن الحسن بن سيدنا علي المرتضى الى مصر ، ثم الى "وليلي" (المغرب) وأنزله الامير البربري اسحاق بن محمد ، وأكرم مثواه ، وحمل البربر على طاعته ، وأعلن بخلافته ، وكسب ادريس بن عبد الله معارك كثيرة ، وافتتح المناطق فيما بين "تلمسان" و "سلا" واتسقت له الانتصارات ، حتى استشعر الخليفة العباسي هارون الرشيد منه الخطر ، وتوفي ادريس في 177 هـ .

في 192 هـ أسس ادريس بن ادريس مدينة "فاس" وقد حكمت هذه الاسرة 140 عاماً ولكن الحكومة عاشت

(1) الامامة والسياسة 2ـ100 .

طيلة الفترة حروباً داخلية ولم تتمتع بحاكم حازم قوي الساعد ، واداري عاقل يلم شعثها ، ويجمع شملها ، وفي 309 هـ هجم على حكومة بني ادريس أحد أمراء الخليفة الفاطمي ، ونفى ملكهم يحيى الثالث ، وبذلك طوى بساط بني ادريس ، ثم كان الامر من 305 هـ الى 427 هـ الى العبيديين ، ولم يكن فيهم ملك ذو شان ومكان .

وقد شغلت حكومة مصر الفاطميين بنفسهـــا ، حتى انصرفت همتهم عن المغرب مع الايام وعلى ذلك فانحسرت سلطتهم عن المغرب(1) .

المرابطـون :

يرجع نسبهم الى القبيلة البربرية "صنهاجة" ، كان يحيى بن ابراهيم الصنهاجي راجعاً من الحج فوافاه في القيروان أبو عمران احد العلماء الاتقياء ، الذي اثار في قلبه روح الاصلاح والدعوة الى الخير ، فأتى قبيلته مع عبد الله احد العلماء الصلحاء وبنى زاوية ومدرسة ، جذبتا اليهما ألفاً من الصنهاجيين ، يشتغلون فيهما بالعلم والعبادة وتسلطوا على معظم مناطق السودان ومراكش ، ومن اجل اكثارهم من بناء الرباط أطلـــق عليهـــم اسم "المرابطين" وكانوا يغطون وجوههم لدى الرحلة والركوب باللثام فعرفوا بالملثمين أيضاً ، وقد سموا لمتونة أيضا ، لان جنلتهم من "ملتا" وسقط عبد الله شهيدا في معركة في 450 هـ ، وخلفه أبوبكر بن عمر اللمتوني الذي بسط نفوذه فيما بين تلمسان الى البحر المحيط الاطلسي وتنازل عن الحكومة عندما شكت اليه عجوز وأسنـــد الحكم الى السلطان يوسف بن تاشفين الذي يزدان تاريخ مراكش

(1) راجع تاريخ ابن خلكان 2ـ225 طبعة 1284 هـ .

بمآثره وبطولاته ، والذي صرف عمره في ترفيه الشعب ، كان شديدا على نفسه ، رحيماً على غيره ، يعيش حياة التقشف والجلادة ، ويلبس الصوف ، وعاش حياته كلها على خبز الشعير واللحم ولبن الابل ، تولى الحكم في 56 من عمره ومات في 100 من عمره بعدما حكم 44 سنة .

وفي 454 هـ ـ 1062 م بنى مدينة مراكش ، وبنى بها قلعة ، وبجوارها مسجداً ، وساهم في بنائه كالعمال العاديين ، وقد افتتح المناطق الـى الجزائـر ، وفي 479 هـ ـ 1086 م غزا يوسف الاندلس على طلب مسلميها البائسين المنكوبين ، وقتل من القوات المسيحية 80 الف فارس ، ومائتي ألف راجل ، واستشهد من المسلمين ثلاثون الفاً وغزا اسبانيا في 481 هـ ـ 1088 م ، وأعاد الكرة عليها في 483 هـ ـ 1090 م ، ورجع الى مراكش بعدما استعمل عليها احد رجاله .

الموحـدون :

وحكم بعده ابنه علي 37 عاماً . لكنه كان ميالا الى العبادة واصلاح النفس ، لكنه دام على الحكم ، حتى برز أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت كقوة محاذية له ، وظل يحارب احدهما الآخر 13 عاماً حتى توفي علي ابن يوسف في 534 هـ ـ 1143 م ، وقد كان محمد بن تومرت يتمتع ـ الى جانب العلم والورع والتقوى ـ بسليقة الحكم والادارة ، ولد في بيت فقير في المال والثروة ، كان أبوه موظفاً في مسجد يقوم بانارة السراج فيه ، تعلم محمد أولا في اسبانيا ، ثم هداه الحرص على التوسع الى الامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (م 505 هـ) فلازمه ثلاث سنوات ، وتعلم عليه العلم والحكمة كما تعلم طريق الحكم الاسلامي ، يقول العلامة شبلي النعماني في كتابه "الغزالي" باللغة الاردية :

"تعمق في العلوم في صحبة الامام الغزالي ، وعزم – بحكم طموحه أو بفضل تعليم وتربية الامام – على أن يطوي بساط حكومة علي بن يوسف في اسبانيا ، ويحل محلها حكومة جديدة ، وعرض هذه الفكرة على الامـــام فاستحسنه لانه بدوره كان يتوق الى حكومة تتولى نشـر العدل والخير ، لكنه سأله عن الاعدادات اللائقة لهـــذه المهمة العظيمة ، وسمح له بذلك ، لما اطمأن الى هـذا الجانب(1)" .

واتخذ ابن تومرت جبـل تينملل بجانـب السوس قاعدته العسكرية ، وتجمع عنده نحو 20 ألفاً من القوات . بفضل قوة خطابته ، وادعائه المهدوية ، وخاض معارك عديدة مع المرابطين ، يقول فيه القاضي محمد سليمان المنصور فوري الهندي :

" والذي يستخرج الثناء على ابن تومرت هو زهده في الدنيا وظل يلازم عيشة الكفاف التي التزمها في أيام تحصيله ، الى آخر حياته ، يقال ان أخته كانت تغزل ، وكانا يعيشان على ذلك ، وكان يأتدم بالخل أحياناً ، وأحياناً بالزيتون ، وغنم مرة أموالا كثيرة ، وطلب اليه الناس أن يوزعها عليهم وألحوا في ذلك ، حتى أحرقها بن تومرت وأعلن مدوياً من كان معي من أجل المادة فقط فليكن نصيبه الحرمان واليأس" .

ولما حضره الموت استدعى عبد المؤمن ، وأهدى اليه كتاباً للامام الغزالي وأوصاه بالتمسك به ، وتوفي في 532 هـ ، وكانت ولادته في 485 هـ ، وفي 543 هـ افتتح عبد المؤمن مدينة مراكش وقضى على حكومة المرابطين ، وزحف الى اسبانيا بمائة ألف فارس وثلاث مائة راجل في

(1) الغزالي 246 .

557 هـ ، ولكن وافاه الاجل في 558 ، يقول الاستاذ محمد فريد وجدي وهو يتحدث عنه :

"كان فصيحاً عالماً بالاصول والجدل والحديث ، مشاركاً في كثير من العلوم ، ذا حزم وسياسة واقدام ، لم يقصد قط بلدا الا فتحه ، ومن مآثره بناء مدينة جبل طارق(1)" .

ويقول : "وتولى بعده يوسف بن عبد المؤمن ..... وكان شجاعاً عارفاً بأساليب الحرب ، رقيق الطباع ، حافظا مطلعاً على ايام العرب ، وأخبارهم ، ميالا الى الفلسفة ، وكان له دار كتب جمع اليها انفس الآثار ، وكان ممن صحبه من العلماء أبوبكر محمد بن الطفيل الفيلسوف المشهور وابن رشد المعروف بالحفيد وغيرهما من فحول الرجال(2)" .

وتولى بعده ابنه يوسف يعقوب الذي هزم الفونس التاسع ملك قشتالة (كاستيل) وقتل عددا كبيرا من رجاله ، واستولى على ذخائره .

يقول محمد فريد وجدي :

"كان المنصور هذا (يوسف أبو يعقوب) يعتبر أعظم ملوك الموحدين ، وكانت أيامه أيام امن ورخاء وجلال ، فلما كانت سنة 595 هـ جمع أعيان دولته وعهد بالملك لابنه محمد الناصر لدين الله وتنازل هو عن الحكم وانقطع لنفسه(3)" .

وكان محمد الناصر لدين الله يملك من القوة والمنعة ما يخافه جميع الملوك المسيحيون ، كان عنده مليونان من القوات ، وحينما زحف بجيشه الجرار الى الاندلس ،

---

(1) دائرة معارف القرن العشرين 8ـ671 .

(2) المصدر نفسه 8ـ672 .

(3) المصدر نفسه 8ـ674 .

ارتجت له جميع بلاد الافرنج المتاخمة للاندلس ، وكتب اليه كثير من ملوك البلاد يسألونه السلام وذلك في 680 هـ، وتألبت على مواجهته كل القوى المسيحية في أوربـا ، وكان الانتصار في هذه المعركة من المؤكد ، ولكن المسلمين انهزموا شر هزيمة بسبب وزير الناصر المسمى بابن جامع ، فانه أظهر الاسلام نفاقاً وتمكن من فؤاد الناصر ، فأقصى بمشورته وجوه العرب والبربر الذين كانوا يحيطون به ، وكانت هذه النكسة 609 هـ(1) ، ومات محمد الناصر في 610 هـ .

وقام بالامر بعده ابنه يعقوب يوسف ، وفي عهـده أيضاً انهزم المسلمون هزيمة أخرى منكرة في 614 هـ ، وضعف أمرهم بها في البلاد جداً ، وتعاقب بعده ملوك صغار لقوا الهزيمة على يد بني مرين ، وكان آخر ملوكهم اسحاق بن ابراهيم ، يقول محمد فريد وجدي :

"فبايع الموحدون اسحاق بن ابراهيم أخا المرتضى بعد ان هربوا الى جبال تينملل ، فبقي هناك الى سنة 674 هـ ، ثم قبض عليه وجيئ به الى سلطان بني مرين يعقوب عبد الحق فقتله هو وجميع أقاربه ، فانقرضت بهم دولة الموحدين بعد ان دامت 126 سنة .

"كانت هذه الدولة من اعظم الدول التي سادت بلاد المغرب ، واكبرها بطشاً ، وقد كانت لها أساطيل تمخر في البحر وتقاتل أعداءها وكانت حدودها تمتد الى الصحراء الكبرى جنوباً ، والى بحر الظلمات غرباً والى الرمال الفاصلة لها عن مصر شرقاً ، والى بحر الروم ومضيق جبل طارق شمالا ، وكانوا يمتلكون مع هذا بلاد الاندلس يتبعها مدائن اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية بحيث كانت

(1)راجع دائرة معارف القرن العشرين 8ـ672 ـ 675 .

جميع شواطئ النهر الاسباني المسمى بالوادي 'الكبير تابعة لهم ، وكانوا يملكون جميع القسم الجنوبي من بلاد البرتغال أيضاً(1)" .

دولة بني مرين من 614 هـ الى 890 هـ :

كان بنو مرين من جبل زناتة ، بسطوا نفوذهم على تونس ومراكش تدريجياً ، وكان سلطانهم الاول عبد الحق بن محيو ، وخلفه ابنه سعيد عثمان بن عبد الحق ، الذي حارب الموحدين 23 عاماً ، حتى مات قتيلا سنة 638 هـ .

وقام بالامر بعده أخوه أبو معروف محمد بن عبد الحق ، الذي دحره الموحدون ، وقتلوه في الحرب في 642 هـ ـ 1244 م ، وقد كان بنو مرين أحكموا نفوذهم في عهدهما في مراكش الشرقية .

وخلفه أبوبكر بن عبد الحق ، الذي افتتح في 643 هـ ـ 1245 م مكناسة وفاس وتوفي عام 656 هـ ـ 1258 م بعدما دام على الحكم 14 عاماً .

وتولى الامر بعده يعقوب بن عبد الحق في 1258 م ، الذي أحكم جذور بني مرين وجعل دولتهم لا تنال ، وقام بأعمال جليلة لامعة في التاريخ ، جاء في دائرة معارف القرن العشرين :

"كان هذا السلطان من كبار سلاطين المغرب ، فان له غير هذه الفتوحات أعمالا خيرية ، فقد بنى بيمارستانات للمجانين والمجذومين والعمى والفقراء وأجرى على جميعها المرتبات ، وبنى مدارس لطلبة العلم ، ووقف عليها أموالا طائلة(2)" .

---

(1) نفس المصدر ص 677 .

(2) دائرة معارف القرن العشرين 8ـ681 .

وكان قد وزع أوقاته من الليل والنهار ، فكان يصرف الثلث الاخير من الليل في الصلاة والقيام ، وبعد صلاة الفجر يشتغل الى نحو الساعة العاشرة بدراسة الاخلاق والفلسفة ، ثم ينصرف بعد صلاة الضحى الى الاعمال الرسمية، قد غزا اسبانيا في 674 هـ ـ 1275 م ، ثم هجم عليها للمرة الثانية في 1277 م ، وساعد ابن الاحمر صاحب الاندلس وباني الحمراء وخاض مع الفانسو حروبًا كثيرة ، حتى تسلم الاندلس ، وأسلمها الى بني الاحمر ، ورجع الى مقره ومات في 685 هـ ـ 1286 م بعد ان حكم 19 عامًا .

وخلفه ابنه الناصر الذي أكسب دولة بني مرين رونق الحضارة وعزة الملك وفي عهده اخترع العرب البارود واستعملوه في حروبهم(1) ، وتوفي في 706 هـ نائمًا بطعنة خصي اسمه سعادة .

وبعد ملوك جاء على عرش دولة بني مرين المنصور بالله أبو الحسن علي ، وكان أفخم بني مرين دولة ، وأكبرهم ملكًا ، وأكثرهم أبهة ، وآثارا بالمغربين والاندلس(2) ولكن الاسبانيين والبرتغاليين استغلوا ضعف الحكام والسلاطين الآخرين من بني مرين وبدأوا يغيرون على مراكش ، وفي آخر عهد دولة بني مرين كان البرتغاليون قد استولوا على أكثر ثغور مراكش فاستولوا على سبتة 818 هـ ـ 1415 م وعلى قصر المجاز أو قصر مصمودة سنة 862 هـ وعلى طنجة سنة 869 هـ وعلى اصيلا سنة 876 هـ وعلى مدينة آسفي وبعض جهات السوس في السنة المذكورة وغير ذلك بحيث لم يبق من ثغور مراكش بيد أهلها الا القليل(3) .

---

(1) أيضا ص ـ 682 .
(2) أيضا ص ـ 683 .
(3) أيضا ص ـ 687 .

وكان عبد الله الثالث آخر سلاطين بني مرين ، وكانت دولة بني مرين قد تضعضع بنيانها ، وتفككت عراها ، فتغلب عليها بنو وطاس ، وداموا يحكمون منذ 876 هـ الى 961 هـ وكان أول سلاطينهم أبو عبد الله محمد الشيخ الذي في زمانه محيت دولة المسلمين من الاندلس ، وترامت بهم الاقطار ، وذهب غالبهم الى المغرب الاقصى ، وتونس وطرابلس ومصر ، ومات السلطان محمد الشيخ سنة 910 هـ ـ 1500 م ، وقدم سلطان غرناطة ابو عبد الله ابن الاحمر فاستوطن فاس تحت رعاية السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه محمد الملقب بالبرتغالي ، الذي ظل مصروفاً الى حرب المسيحيين في مناطق الثغور ، مما مكن الاشراف السعديين من بسط النفوذ ، وظهور دولتهم سنة 915 هـ ، ومهد لانقلاب دولة بني وطاس .

دولة الاشراف السعديين من 915 هـ الى 1069 هـ :

الاشراف السعديون ينتسبون الى محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنهم ، وكان العهد عهد الانحطاط الشنيع ، فقد استولى البرتغاليون ـ بعدما استولوا على مغادور ومزغان في سنة 3ـ1012 هـ ـ 7ـ1506 م على آسفي وأغادير وآزمور ، وبلغت الحروب الاهلية الى ان البرتغاليين كلما دعوا الى الصلح قالوا : من هو اميركم الذي تجتمع عليه كلمتكم ، حتى نكلمهم به ، فاتفقت كلمة جمع من العلماء والامراء العقلاء على ان يبايعوا الشريف محمدا من اهل درعة .

وكان السبب في قدومهم الى المغرب ان اهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم فقيل لهم : لو أسكنتم بين ظهرانيكم أحد الاشراف لصلحت زراعتكم ، فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن احمد فصلحت زراعتهم وسموا بالسعديين تفاؤلا

بذلك(1) ، وكان اصلهم من ينبع النخل من أرض الحجاز .

وكان أول ملوكهم القائم بأمر الله أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ، الذي خاض معارك عديدة ضد البرتغاليين ، وخرج منها فائزا منتصرا ، وتوفي سنة 923 هـ .

وحكم بعده ابنان له ، واصغرهما محمد ابو عبد الله المهدي ، الذي طارد البرتغاليين من كثير من المناطق ، وافتتح مكناسة ، وفاس سنة 957 هـ ـ 1550 م ، وطرد أبا حسون الذي انحاز الى الاتراك في الجزائر ثم عاد أبو حسون الى فاس وافتتحها بمساعدة صالح باشا وقهر المهدي ، وبما ان المهدي كان يحقد على الاتراك العثمانيين لاستيلائهم على المغرب الاوسط ، ويطيل لسانه بسبب السلطان سليمان القانوني ، فأضمر له هؤلاء الشر وقاتلوه ، وقتلوه سنة 964 هـ ، وكان المهدي عالي الكعب في العلم ، يحفظ القرآن الكريم ، وصحيح البخاري ، وديوان المتنبي ودواوين الشعراء الآخرين ، وخلفه ابنه ابو محمد عبد الله الغالب بالله سنة 964 هـ ، وخاض عبد الله حروباً مع البرتغاليين وتوفي سنة 981 هـ

وقام بالامر بعده ابو عبد الله محمد المتوكل على الله ، فلما كانت سنة 983 هـ قدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش من الترك ، فبدد ملكه ، رغم تقدم المتوكل بجيش فيه 125 000 مقاتل ، ومعه حليفه ملك البرتغاليين لقتال عبد الملك ، وحدث بين الفريقين قتال عنيف ، انتهى بانتصار جيش عبد الملك ، وكان قد مات في خيمته ، وقتل ملك البرتغال غريقاً في نهر ، وقتل المتوكل أيضا(2) .

---

(1) نفس المصدر ص ـ 690 .

(2) المصدر نفسه ص ـ 692 .

وقام بالامر بعد عبد الملك ، الشريف أبو العباس احمد المنصور بالله سنة 986 هـ الذي اتسع ملكه حينما استولى على تومبكتو ، وكانم ، وكاغو ، وغيرها من بلاد السودان ، وكانت بينه وبين القوى الاوربية علاقات ود ، وكانت بينه وبين الملكة الزابت مراسلات ومكاتبات وبنى المنصور مباني عظيمة منها القصر المشهور المسمى بالبديع، صرف عليه مالا طائلا ، فرشه بالرخام والفسيفساء والطنافس والحرير ، وأتم بناءه في17 عاماً ، وكانت وفاته سنة 1012 هـ بالوباء الذي كان انتشر في تلك السنين(1) ، وقد هدمه مولاي اسماعيل في عهده .

ووقعت الدولة بعد المنصور فريسة حروب داخلية ، تولى الامر بعده ابنه السلطان الشريف أبو المعالـي زيدان ، وفي عهده أصيب المسلمون في الاندلس بالكارثة العظيمة ، فقد كانوا فقدوا غرناطة 897 هـ ، ويعيشون فيها ذعرا وخوفاً وبؤساً ، وفي 1016 هـ قد أجل فيليب الثاني ملك اسبانيا لجلاء المسلمين عن الاندلس ثلاثة أيام وأعلن أنه من وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فتفـرق المسلمون في الامصار والاقطار ، وضوى غالبهم الى فاس وتلمسان وهراة ، وبعضهم الى الجزائر وسلا وتطوان وفي عهده استولى على العرائش الاسبانيون ، وعلى مهدية البرتغاليون ، توفي زيدان في 1037 هـ(2) ، ولم يأت بعد ملك يذكر شأنه ، يسجل اعماله .

دولة الاشراف السجلماسيين :

يتصل نسب سلاطين هذه الدولة الى رسول الله صلى

(1) راجع المصدر نفسه للاطلاع على التفاصيل .
(2) راجع للتفصيل المصدر نفسه ص 692 ــ 694 .

الله عليه وسلم ، أصلهم من ينبع النخل بأرض الحجاز ، وكان أول من نزح منهم الى المغرب المولى حسن بن قاسم في أواخر القرن السابع ، في أول عهد الدولة المرينية ، وكان عالماً مسلماً بكثير من العلوم صالحاً زاهدا ، ومن أولاده السيد علي المثني ، وهو جد الاشراف الحاليين الحاكمين بالمغرب ، وكان له ولد سمي الشريف محمد ، وهو أول من تولى الرئاسة منهم ، وتوفي سنة 1069 هـ ، وتولى الامر في حياته ابنه محمد في 1050 هـ الذي خرج عليه أخوه المولى الرشيد بن الشريف بعد وفاة أبيه ، وحاربه ، فمات المولى محمد في القتال برصاصة وذلك في سنة 1075 هـ ، وقد استطاع الرشيد أن يجعل دولته خلال حكومته لثمانية اعوام أن تضرب بجرانها ، وكان الانجليز يدعونه "تافيلة أعظم" توفي سنة 1082 هـ .

وتولى بعده اخوه المظفر بالله ابو النصر الشريف اسماعيل في 26 من سنه وحكم 55 عاماً ، وكانت الدولة في عهده موطدة الاركان راسخة البنيان ، وكان هـــذا السلطان واسع الملك ، أما مبانيه بقلعة مكناسة ، وقصوره ، ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المجهود(1) .

ويقول العقيد اسكات : "كان اسماعيل متنورا ، وأكثر حزماً بالنسبة الى سلاطين مراكش الآخرين ، وأدنى ما يدل على ذلك ، ان كل ما رأيته في مراكش من المباني الخيرية ، كلها بنيت في عهده كما قيل لي" .

وكانت الشوارع في مكناسة ومراكش وفاس في عهده ـ فيما يقول مؤلف "نزهة الهادي" ـ معمورة بالغادين والرائحين ، وكانت المرأة وحدها تسافر من تلمسان الـــى داخل ، ولا تحدث نفس أحد بأن يتعرض لها ، وكان

(1) المصدر نفسه ص ـ 695 ـ 698 .

يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة وأينما حل لايام بنى مسجدا ، ويؤمه لميعاد كل صلاة مكتوبة ، وكان يحمل معه دائماً المصحف في الحل والترحال .

وكان اسماعيل كثير العيال ، وكانت صلاته مـــع الحكومات الاوربية جيدة ، وكانت كفته راجحة ، يقـول الاديب الفرنسي الشهير والتير :

"كان ملك البرتغال وأمير البحر بقشتالة وغيرهما قد خضعوا له الى ان مدوا اليه يد طلب المساعدة ، لكن المولى اسماعيل الذي كان محارباً شجاعاً وحازماً بطاشاً ، قد رضي بتقديم المساعدة على شروط كانت خطرا على المسيحية ، وسبب عار وشنار لملك البرتغال ، فقد طلب منه مقابل ذلك ان يدفع اليه ابنه وحصوناً ، ومن أجل ذلك فلم تتم المساعدة ، وظل المسيحيون يبدد بعضهم بعضاً دون أن يفسحوا الطريق الى بلادهم للوحشيين (المسلمين) .

وقد استطاع المولى اسماعيل تخليص جميع الموانئ من الاجانب سوى سبتة ، تلك الموانئ التي كانوا مستولين عليها منذ عهد بعيد ، وتوفي في 1139 هـ ـ 1727 م عن 81 سنة(1) .

ولم يستطع أخلاف اسماعيل أن يحتفظوا بشوكـة الحكومة ومنعتها ، ويبقوا عليها مرهوبة الجانب ، مرفوعة الرأس ، وكان منهم المولى محمد الذي كان يتمتع بوفور العقل وحسن التدبير والحزم ، وخاض حروباً كثيرة ، والذي عقد في 1189 هـ شروط صلح بينه وبين الفرنسيين وأوجد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني صلة صداقة وطيدة ، وعقد المعاهدة مع حكومات اوربية عديدة ، وزوج ابنته

(1) راجع للتفصيل تاريخ مراكش 1ـ185 ـ 212

لشريف مكة ، وارسل أموالا طائلة توزع على اشراف الحجاز ، وجوائز عظيمة للعلماء والنقباء وغيرهم بمكة والمدينة ، وفي 1182 هـ ـ 1768 م هزم البرتغاليين في معركة أشنع هزيمة ، وعقد مع فرنسا معاهدة تجارية وأمر بأن يخطب للسلطان العثماني على المنابر .

وكانت للمولى سليمان صلات عميقة مع نابليون ، وحدث في عهده في 1226 هـ حادث جلل ، وهو انتشار الثورة بين البربر .

وتولى الامر بعده ابن اخيه المولى عبد الرحمن بن هشام الذي ساعد الامير عبد القادر حينما استولى الفرنسيون على الجزائر في 1246 هـ ، وبسبب عدم الاخذ بوصية الامير لاقت مراكش هزيمة نكراء على يد فرنسا في 1260 هـ ـ 1844 م ، توفي السلطان عبد الرحمن 1276 هـ ، وقام بعده بالامر ابنه المولى محمد .

يقول محمد فريد وجدي وهو يتحدث عن السلطان محمد ، ويلقى الضوء على عهده :

"في أول حكم هذا السلطان نشب القتال بين المراكشيين والاسبانيين ، وكان السبب في ذلك ان سبتة كانت للاسبانيين ، وكانت العادة قد جرت بين جنود التخوم الفاصلة بين الحدين أن يبنوا لانفسهم بيوتاً من خشب ليقيموا فيها ، رأى جنود مراكش ذات يوم أن جنود اسبانيا يقيمون لهم بناء بالحجر على شكل قلعة على الحدود ، فمنعوهم من بنائها بالقول ، فلم يمتنعوا فهجموا عليهم وهدموا البناء ، وقتلوا منهم من قاوم ، فثارت ثائرة سفير اسبانيا في طنجة ، وطلب معاقبة الجناة وسمى منهم 12 رجلا بالاسم ، وطلب قتلهم بعد استقدامهم الى طنجة فأخذ والي طنجة يهدئ من ثائرته ويحاول اقناعه ،

فلم يقنع ، فتوسل اليه بسفير انجلترا فلم يفد التوسل ، فأخبر السلطان الخبر فجمع السلطان وزراءه ومستشاريه ، وبسط لهم الامر فعدوها اهانة لم يسبق لها مثيل ، وأجمعوا على وجوب الحرب ان اقتضت الحال ، فرفض السلطان طلبات إسبانيا ، فكان هذا الرفض داعيًا لقطع العلائق بين المملكتين ، وكتب السلطان للثغور بالاستعداد وللقبائل بجمع الجنود ، وما هي الا أيام حتى برز في جهة سبتة جيش من الاسبانيين مؤلف من 20 ألف مقاتل ، كاملي العدد والآلات والذخائر ، فقابلهم المراكشيون بشجاعتهم المعهودة ، ولكن ماذا تغني الشجاعة أمام النظام والآلات الجهنمية ، فكانت تحصدهم مدافع الاسبانيين ، وبعد عدة وقائع انهزموا ، وتبعهم الاسبانيون الى مدينة "تطاون ، وكان عددهم وهم بها 000 70 مقاتل ، وكان ذلك سنة 1276 ـ 1858 م فاستولوا على ما بها من الاموال ، ولم يجدوا بها الا مدفعًا واحدا وقليلا من البارود ، فحولوا مسجد سيدي عبد الله البقال الى كنيسة ، وعاملوا الاهالي بقساوة ، ثم ذهب أسطولهم الى أصيلا فهدم وأتلف كثيرا منها ، ثم اضطرت مراكش لطلب الصلح فاجتمع المندوبون ، فتشدد الاسبانيون في مطالبهم ، وقدموا شروطًا لم يرض بها السلطان ، فعاد القتال أشد مما كان ، وحدثت عدة وقائع ، انتصر المراكشيون فيها كلها ، ومع هذا فتم الصلح على الشروط التي أرادها الاسبانيون الا قليلا ، وتم بينهم الاتفاق سنة 1860 م ـ 1276 هـ .

وكان أهم شروط الصلح أن تدفع مراكش لاسبانيا مائة مليون فرنك ، وتتنازل لها عن قطعة أرض جنوب سبتة ، وأن يكون لها فرضة بحرية على المحيط الاطلانطيقي ، وهي التي سموها "سانت كروز" ، وأن يكون لها الحق في اقامة

وكيـــل في مـــراكش ، والتصريـــح لقسوسها بانشـــاء المـــدارس ،والاديـــرة ، وأن يكـــون لهـــا نفـــس الامتيازات التي منحت لاعظم الدول الاوربية الاخرى(1)" .

وتولى الامر بعد ذلك مولاي الحسن (1292 هـ ـ 1875 م ـ 1312 هـ ـ 1894 م) الذي شغله روع الثورات الداخلية خمس سنوات ، وكان ذا همة عالية الى جانب الحزم والعزم ، وقد قام باجراء اصلاحات كبيرة في المملكة ، وعنى بتنظيم الجنود على الطراز الحديث وجلب الحديث الاحدث من الاسلحة آنذاك ، وأرسل عدة من شبان بلاده الى بعض مدارس فرنسا والمانيا للتدريب على الفنون العسكرية والعلوم الرياضية ، كما جلب من هذه البلدان خبراء وضباط عسكريين لتدريب قواته وأقام في 1301 هـ ـ 1883 م مطبعة في طنجة وأصدر صحيفة باسم "المغرب الاقصى" باللغة الاسبانية ، ثم أصدر "ريويك دومراكو" ، كما اصدر في 1884 م "تائمز آف مراكو" ، وكان في طريقه الى فاس والرباط لردع رعاياه فوافته المنية 1311 هـ ـ 1894 م .

وقد أوقف استيراد التبغ بعدما استفتى العلماء ، وكان بعيد الهمة والنظر كسلفه ، وقد عرض عليه الانجليز خطة ذات 16 مطلباً من أجل ترسيخ قدمهم في المملكة فرفضها رفضاً باتاً .

وخلفه ابنه المولى عبد العزيز الرابع 1312 هـ ـ 1894 م في 16 من سنه ، فثارت عليه القبائل على عادة أهل المغرب لدى تولي كل سلطان جديد ، ولما رأت الدول هذه الثورات عند اقامة المولى عبد العزيز سلطاناً ، اضطرت الى المحافظة على رعاياها في المملكة ، فأرسلت كـل

(1) دائرة معارف القرن العشرين 8ـ712 ـ 713 .

من فرنسا والمانيا وانجلترا وايطاليا واسبانيا والبرتغال ، سفناً حربية الى طنجة ، ولما استطاع السلطان اخضاع هذه القبائل حتى أذعنت الى الطاعة عادت سفن هذه الدول الى بلادها .

وقد أدخل السلطان اصلاحات كثيرة على النظـام العسكري وعنى بتدريب القوات على النظم الاوربية ، وعندئذ نهض أخوه مولاي عبد الحفيظ ، وأثار عليه القبائل بحجة أنه ينزع لمجاراة الاوربيين في عوائدهم ، فتنحى السلطان عن السلطة على ايعاز من فرنسا ، فاستبد بالامر مولاي عبد الحفيظ في 1329 هـ ـ 1908 م ، ولكن ما لبث حتى اضطر الى الاستقالة ، وبسطت فرنسا في 1330 هـ ـ 1912 م حمايتها على "الدار البيضاء" وفاس ومدن أخرى ، وفي نفس العام خربت الرباط ، وصارت الحكومة لعبة بيديها ، وعينت مولاي يوسف سلطاناً الذي وقف موقف المهادنة مع فرنسا نظرا الى الملابسات(1)

يقول روم لاندو (أستاذ العلوم الاسلامية وعلوم افريقيا الشمالية في جامعة بيسفك) :

"في 1346 هـ ـ 1927 م تولى الملك ابن مولاي يوسف محمد الخامس في 18 من سنه ، فأعلن في خطابه بطنجة الحق الشرعي لشعب مراكش ، وضغط على ايجاد العلاقات مع العالم العربي ، ولم يكن من الممكن كسب

---

(1) أنظر تاريخ مراكش 2ـ22 ، 43 ، ودائرة معارف القرن العشرين المجلد الثامن .

معركة التحرير في مراكش بدون اعتبار محمـد الخامس قائدا دينياً ودنيويا(1) " .

والسلطان محمد الخامس والد السلطان الحالي مولاي الحسن الثاني ، وكان سلطاناً ثاقب النظر ، قوي الارادة ، صالحاً حازماً ، تقياً لله ، وكان موضع الحب والاحترام والقبول عند الشعب من اجل مزاياه وورعه وتقواه .

يقول روم لاندو :

"بز احترامه احترام جميع السلاطين الماضين ، وكانت كل طبقة كأنها تعبده ، وجعله الناس يعتبرونه وليـاً مقدسا(2)" .

وكان السلطان الحالي الحسن الثاني ساعد والده الايمن في حياته ، ومستشاره الخاص وزميله في حركة تحرير مراكش .

وقد اعتقلتهما حكومة فرنسا في 20 اغسطس 1953 م وعليهما ملابس متواضعة ، ووضعتهما على فرش الطيارة في برد قارس ، واتجهت الطيارة الى (Corsica) ثم جيء بهما الى "مدغاسكر" وحبسا في فندق بال كان سقفه يترشح ، ثم عـــادا الـى مراكش في نوفمبر 1955 م ، وتحررت البلاد في 2 مارس 1956 م(3) ، وبعدما رجع محمد الخامس من المنفى ، واستقلت البلاد ، أعطى ولده (الملك الحسن الثاني) مناصب حساسة ، ثم تولى الملك بعد وفاته في 26 فبراير 1961 م .

ولازم السلطان الحسن الثاني موقف الاعتدال ، فهـو صديق الدول العربية والاسلامية ، كما أن له علاقات الصداقة

---

(1) ، (2) Hassan II King Of Morocco

(3) نفس المصدر ص 49 .

مع الدول الاوربية بحكم موقع بلاده ، ولكن ليس على حساب أنفته وإبائه ، وحينما أرادت اسبانيا أن تخلي في الصحراء ، فقام للاستيلاء عليها بالمسيرة عـــام 1975 م الخضراء في ثلاث مائة وخمسين ألفا من ابناء وطنه ، واستولى على الصحراء ولم يبال بخطر هجمات اسبانيا ، وقد كانت الروح الدينية أحد العزائم في هذه المسيرة ، فقد كان الناس مقبلين الى الدعاء والانابة والصلاة والتلاوة ، ولما بلغوا الصحراء صلوا ركعتين شكرا لله .

وكان هتاف هؤلاء المجاهدين العزل ـ وكان فيهم 13 ألف سيدة أيضاً ـ الكفاح الكفاح ، القرآن هو السلاح . وكانت الصحراء تحت استيلاء اسبانيا منذ 90 سنة ، وقد قطع هؤلاء المجاهدون لتخليصها مشقة مسافة 90 ميلا الى مدينة العيون ، وعانوا صعوبات في الطريق ، وتتصل حدود هذه الصحراء بعدد من البلاد ، فتتصل عبر ألف ميل بموريتانيا ، وعبر 50 ميلا بالجزائر ، وعدد سكانها نحو 74 ألفاً من النفوس .

وهذه الصحراء جزء من الصحراء الافريقية الكبرى ، التي تمتد على مسافة 80 مليون كلومتر مربع ، وهي في ملك 13 دولة افريقية ، وقد بلغها المجاهد المؤمن عقبة بن نافع من جانبها الشمالي في 62 هـ .

وأهميتها المادية أنها في الدرجة الرابعة في العالم في انتاج "فاسفيت" (وقود القوة النووية" وكذلك سواحلها من أهم مراكز صيد الاسماك في العالم ، وقد جرت المفاوضات السياسية فيما يتصل بمصير هذه الصحراء فيما بين مراكش والجزائر وموريتانيا ، واسبانيا الى مدة طويلة ، ولم تسفر عن نتيجة ، فتقدمت مراكش واستخدمت بسالتها ، وقامت بهذه المسيرة الآمنة الموفقة المثمرة .

الطـرق الصوفيـة :

سوف لا يتم أي تاريخ لمراكش ما لم تذكر الطرق الصوفية ، لان المسلمين نالوها بفضل المجاهدين والصوفية ، الذين كانوا يجمعون بين الدعاء والتسبيح والمناجاة في خلوات الليل ، والتكبير المتواصل في النهار على صهوات الخيل ، فقد كان الاسلام عندهم دينـاً ودولة ، وسيفـاً ومصحفاً ، وهؤلاء الذين قضوا على نفوذ المسيحيـة ، ونفخوا روح اليقظة الاسلامية في الدهماء والعلماء .

يقول الامير شكيب أرسلان رواية عن المسيو بونه موريي :

"في أواخر القرن الحادي عشر للمسيح طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التي كانت ممتدة على ساحل افريقيا الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة في وسط الاقيانوس الاسلامي(1)" .

ويقول : "وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فـاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بافريقيا ، وقد أخذ بها خلق كثيرون ، ووصلت الطريقة القادرية الى اسبانيا ، فما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقـة القادرية الى فاس ، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالـت البدع من البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة .... أمـا الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة الى أبي الحسن الشاذلي ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيليـة 1127 م ، وقرأ في فاس ، وحج البيت الحرام ، ثـم استقر بعلم التصوف في بجاية ، وتبعه خلق كثير انقسموا

(1) حاضر العالم الاسلامي 2ـ360 طبع القاهرية 1352 هـ .

بعده الى ثلاث فرق ، الاولى الشاذلية المنتشرون في الجزائر ، والثانية الدرقاوية الذين مركزهم في مراكش ، والثالثة المدينية الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب(1)" .

"وفي القرن الثامن عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية .

وبالاجمال فالقادرية هم أحمس مبشر في الدين الاسلامي في غربي افرقيا .... ومن مريديهم من يخدمون مهنة الكتابة والتعليم ، ويفتحون كتاتيب ، ليس في زوايا الطريقة فقط بل في كل القرى ، فيلقنون صغار الزنوج الدين الاسلامي ، اثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس ، والجامع الازهر بمصر ، ويعودون الى تلك البلاد لاجل مقاومة التبشير المسيحي(2)" .

"أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الاول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بوبريت في مراكش ، وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى 1249 هـ ـ 1832 م) الذي أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الاوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي .

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد

---

(1) نفس المصدر ص 367 ـ 368 .

(2) نفس المصدر ص 395 ـ 396 .

التيجاني المتوفى في فاس 1197 هـ ـ 1782 م .... ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينة في السودان ، واهالي فوتاتورو « FAUTATORO » ، وفوتا جالون وأمة البلد ، وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة اربعين سنة ، هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانطيقي(1)".

(نفس المصدر ص 396 ـ 397 .

أسبوعان في المغرب الأقصى

الحنين إلى زيارة المغرب الحبيب وتحقيق هذه الأمنية الأثيرة

قد عشت في أمنية زيارة المغرب ، وذلك لانها تحمل شخصية ممتازة أصيلة ، ومدرسة مستقلة ، في التاريخ الاسلامي ، والحضارة ، والعلوم الاسلامية والادب والشعر ، والهندسة ، والفن المعماري ، وقد وجد الاسلام فيها مجالا خصباً ليتجلى اعجازه ، وقدرته على التأثير والانجاب ، والتخريج والانتاج ، وكسب القلوب وفتح النفوس ، وسحر العقول ، فقد استطاع ان يخضع أمة عصية أبية مثل البربر ، وجعلهم جزءا من أجزاء القومية الاسلامية العالمية ، وصهرهم في بوتقة الحضارة الاسلامية العربية ، حتى استطاع أحد أبنائهم ، طارق بن زياد ، في نهاية القرن الاول الهجري ان ينشئ في اسبانيا (الاندلس) حكومة الاسلام .

وظلت اسبانيا طيلة ثمانية قرون ترتع في حظيرة الاسلام ومركز الحضارة الاسلامية ، والعلوم والفنون الاسلامية، وقد كان مع طارق بن زياد 12 ألفاً من المقاتلين شذ فيهم من كان من العرب ، وجلهم أو كلهم كانوا من البربر ، وقامت في افريقيا الشمالية حكومات مرهوبة الجانب دوت صداها عبر قرون طويلة من "برقة" و "طرابلس" الى ساحل المحيط الاطلانتيكي بل في أرجاء أوربا أيضاً ،

تجدر بالذكر منها بصورة خاصة حكومات "الفاطميين"1) و "المرابطين" و "الموحديين" (ويصح أن ندعوها "امبراطوريات" اذا تحرينا الدقة في التعبير) ، وقد كان مؤسس دولة الموحدين ينحدر من السلالة البربرية .

وقد أنجبت المغرب نوابغ العلماء وكبار الائمة ، أمثال القاضي عياض ، وأبو القاسم ، عبد الرحمن التهيلي (شارح سيرة ابن هشام) ، وابو الوليد الباجي (شارح الموطأ) والقاضي أبوبكر بن العربي (صاحب أحكام القرآن) والكتب الجليلة في علوم الكتاب والسنة ، وعبد الرحمن بن خلدون (صاحب المقدمة والسابق الى فلسفة التاريخ والتمدن) ، ومحمد بن محمد الادريسي في الجغرافيا ، وابن رشيق القيرواني في النقد والشعر والادب ، وابن بطوطة في السياحة ، أولئك الذين تشبث بمؤلفاتهم وكتاباتهم علماء الشرق مدة قرون .

وأما في الزهد والورع ، والاحسان وتزكية النفوس ، فقد أجمع الناس على الاقرار بفضل المغاربة في هذه الناحية ، ومواهبهم الطبيعية في هذا الشأن ، حتى قالوا : "إن الشرق أرض الانبياء ، والمغرب أرض الاولياء" وهاكم مثل الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، مؤسس الطريقة الشاذلية ، ومحد بن سليمان الجزولي مؤلف "دلائل الخيرات" ، وسيدي عبد العزيز الدباغ مؤلف "الابريز" . ولكنه من عجيب الصدف أني ـ على شهرتي بكثرة

---

(1) ويدعوهم معظم المؤرخين العرب من اهل السنة "العبيديين" ويشكون في انتمائهم الى السلالة النبوية الكريمة ، راجع للتفصيل "رجال الفكر والدعوة في الاسلام" الجزء الاول المقال الذي يتحدث عن صلاح الدين الايوبي .

الرحلات والجولات والزيارات ، وقد زرت فعلا في 1963 م اسبانيا ـ ما تمكنت من زيارة هذه الضفة الغربية من افريقيا الشمالية التي تمتد من طرابلس" (ليبيا) الى "طنجة" ، وما تشرفت في قارة افريقيا الا بزيارة مصر والسودان .

وقد ثار في الحنين الى زيارة المغرب الاقصى أرض الظرف والروعة والجمال الطبيعي ، بدراسة التاريخ حيناً، وبتأثير مجالس استاذي العلامة الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي وحديثه ، وصديقي وزميلي الفاضل الاستاذ محمد العربي الهلالي(1) الذين عشت معهم أعواماً طوالا ، وكانا يذكران مراكش قياماً وقعوداً ، ويتحدثان عن حضارتها ومدنيتها ، ومزاياها وخصائصها ، وقد وجه الي مرة جلالة الملك الحسن الثاني عاهل مراكش دعوة ملحة لزيارتها ، ومن عادته أنه يدعو نخبة العلماء من الاقطار الاسلامية في شهر رمضان المبارك لالقاء الدروس والمحاضرات في القصر الملكي ، ويحضرها في عناية بالغة ، ويحضرها عدد كبير من أبناء البلد ، ويعنى بنشر هذه المحاضرات التلفاز والراديو ، وتكون له كلمة ختامية في نهاية سلسلة هذه الدروس ، تطبع وتنشر في صورة كتاب ، ولكني ما تمكنت من الحضور لان هناك نظاماً رتيباً لشهر رمضان المبارك في وطني "راي بريلي" ، أبقى متقيدا به ، ويحضره عدد وجيه من خلص الاصدقاء وطلبة دار العلوم ندوة العلماء ، وبناءا على ذلك اعتذرت

---

(1) كان الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رئيس قسم الادب العربي في دار العلوم ندوة العلماء مدة ثلاث سنوات أو أكثر ، واما شقيقه الاستاذ محمد العربي الهلالي فكان صديق المؤلف ورفيقه في الحل والترحال والتنزه والقنص .

عن تلبية الدعوة الملكية الكريمة وفاتتني الفرصة السانحة لزيارة المغرب ، وكان ذلك تقدير العزيز العليم ، فلو حضرت بهذه المناسبة ، ما تمكنت من زيارة أرجاء البلد والاحتكاك بمختلف الطبقات ، والاجتماع في حرية بنخبة الافراد وصفوة الاشخاص ولاسيما العلماء ورجال الفكر وقادة التعليم والتربية وزعماء السياسة .

أسباب التيسير لزيارة المغرب :

وقد أتاح الله فرصة لتحقيق هذه الامنية القديمة ، حيث وجهت الي "جمعية الجامعات الاسلامية" (التي تدعى الآن رابطة الجامعات الاسلامية) دعوة لحضور المؤتمر السنوي للجامعات الاسلامية المزمع عقده في الرباط في نيسان سنة 1976 م ، وقد وصلت هذه الدعوة الى الهند حين كنت في الحجاز ، وهي جمعية جامعة للجامعات الاسلامية وكبار المعاهد والمدارس الاسلامية المنبثة في العالم ، أسست منذ أعوام في عاصمة الرباط وفيها مقرها الرئيسي ، وقد كانت دورة مجلسها الاستشاري منذ ثلاثة أعوام في المدينة المنورة ، وكنت موجودا بمناسبة الحضور في المجلس الاستشاري للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، وقد انتخبت عضوا في الجمعية بصفتي أمين عام ندوة العلماء ولا أزال على عضويتها منذ ذلك الوقت ، ولكني لم أسعد بالحضور ولا مرة واحدة في مؤتمرها السنوي ، وربما كان من الممكن ان اعتذر عن الحضور في هذه المرة أيضًا لكثرة أشغالي ، وطول المسافة وضعف الصحة ، لو لم يكن قد اطلع على القصة أمين عام رابطة العالم الاسلامي سابقًا معالي الشيخ صالح القزاز، وقد تلقى دعوة الحضور فعلا ، ولكنه عينني ممثلا عن الرابطة ، فقد كان من المزمع أن تعقد الرابطة مؤتمرا

صحفياً في موريتانيا في تلك الايام ، وكان من الضروري أن يحضره ، على كل فقد أخطر معالي الشيخ صالح رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي بأن كتب هذه السطور سيمثل الرابطة في مؤتمر الجمعية ، وقد قام باتمام جميع الاجراءات فيما يتصل برحلة مرافقي ابن أختي العزيز الاستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، فلم تعد لي حجة في عدم الحضور ، فقررت الرحلة ، ورأيت أن ذلك تيسير الهي فلابد أن نستجيب له ، وقد علمت فيما بعد أنها كانت فرصة أحسن لزيارة المغرب ، وتبادل الآراء ، والاجتماع بالرجال ، فتتجمع في المغرب زبدة العلماء ورجال الفكر والدعوة في العالم الاسلامي ، واستطعت ان أرى في وقت قصير الشيء الكثير ، وأتوصل الى نتائج هامة ، وأحضر حفلات وجلسات موقرة ، وأزور كبار الرجال ، كل كان يقول: قدمت المغرب في خير أوان وخير مناسبة .

من جدة الى الدار البيضاء

يوم الاربعاء 5 مايو 1976 م :

علمت في مكة المكرمة ، يوم الثلاثاء 4 مايو 1976 م ، بعد صلاة العصر فجأة أنه من المقرر أن أتوجه غداً بعد صلاة الفجر من جدة الى الدار البيضاء (كاسابلانكا) وكان هذا النبأ مفاجأة بالنسبة الي ، فأوقعني في حرج ، فقد كنت أريد أن أتوجه قبل انعقاد المؤتمر الذي يبتدئ من 11 مايو ، بيوم أو يومين ، ولكنه بما انه كانت لي رحلة الى لندن ، فكان من الضروري قانونياً أن أسافر بالطائرة السعودية ، فقد أعطى الطيران السعودي تذكرة السفر من جدة الى لندن ومن لندن الى بومباي دون زيادة في النول ، وقد بذل صديقي الشيخ عبد الرحمن تاجر بومباي مجهودا كبيرا في هذا الصدد ، وقد حضرني

العزيزان السيد حسن عسكري طارق والسيد مصباح النبي الحسني في مكة المكرمة ، وأخبراني بأن الاجراءات كلها قد تمت في هذا الشأن ، ولابد ان تتوجهوا الى جدة بعد المغرب ، وتغادرونها الى الدار البيضاء بالطيران السعودي في الساعة السابعة صباحاً ، وقد رضينا بذلك على مضض لانه كان فيه صعوبات ، وكان من الضروري أن أسافر ذلك اليوم لان الطائرة السعودية انما كانت تسافر الى المغرب يوم الاربعاء وحده ، والذي كان مبعث سرور لي في الرحلة بهذه الطائرة لانها كانت تمر بالضفة الشمالية بتمامها ، فكانت محطتها الاولى طرابلس ، والثانية تونس ، والثالثة الجزائر ، والاخيرة الدار البيضاء ، وكانت هذه الامكنة كلها موضع حبي وعنايتي ، أحن الى زيارتها ، وكان القاء نظرة خاطفة عليها مبعث سرور لي ، مما اكد لنا ان هذه الطائرة كانت اجدر بأن استأثر بها للرحلة ، لان الطائرة المغربية (Morocco Airlines) كان طريقها لا يثير في اهتماماً .

توجهنا الى مطار جدة دون أن نتناول الفطور ، لان الوصول الى المطار قبل اقلاع الطائرة بساعة واحدة ضروري قانونياً ، وشيعنا الى المطار عدد من اعضاء أسرة "نورولي"(1) وبيتها مقربي الدائم في جدة ، من بينهم الشيخ الحاج محمد نورولي ، والاخ العزيز محمد ولي ، وعدد من الاصدقاء المخلصين الهنود ، وكان ممثل الرابطة موجودا على المطار ليساعدنا في اتمام الاجراءات اللازمة ،

(1) اسرة عبد الغني محمد نورولي ، هي صاحبة شركة كبيرة، تقيم في الحجاز منذ نحو قرن او اكثر ، واصلها من فتن (نهر والا القديم) في الهند في ولاية كجرات ، وقد ظلت محافظة على التقاليد الهندية الطيبة ، مع استفادتها بالاقامة في مركز الاسلام ومهبط الوحي .

وتأخر اقلاع الطائرة ساعتين ، وأقلعت في التاسعة والنصف ، بدل أن تقلع في ميعادها في الساعة السابعة والنصف .

في الطائرة السعودية :

وحينما دخلت في الطائرة سرني وجود وفد الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ المكون من نائب رئيس الجامعة فضيلة الشيخ عبد المحسن بن عباد ، وأستاذها الشيخ أبي بكر الجزائري ـ في الطائرة ، وكان مقعداهما في الدرجة الاولى ازاء مقعدينا ، وقد تلقياني بحفاوة .

مع الشيخ محمد الغزالي :

وكان يتصدر مقعدي مباشرة مقعد الكاتب الاسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي أحد زعماء الاخوان المسلمين ، وعلمنا بعد دقيقة أن خمسين طالباً في كلية الشريعة بمكة المكرمة ـ التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة ـ يسافرون بالطائرة الى زيارة المغرب على حساب المملكة السعودية ، وتحت اشراف الشيخ محمد الغزالي أستاذ الكلية ، وقد فرحنا جدا بهذه الزمالة السعيدة التي تشرفنا بها من غير ارادة ، قد سعدت في عام 1951 م بزيارة مصر العزيزة ودامت اقامتي بها خمسة أشهر تقريباً ، وذلك في الايام التي استطاع الاخوان المسلمون أن يتنفسوا الى حد كبير بعد محنة طويلة قاسية ، وتعذيب واعتقال وتشريد ، وشنق ونفي ، وبعدما ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وكنت أتوق الى أن أزور مراكز حركة الاخوان وألتقي بدوائرهم النشيطة ورجالها الابطال ، وكانوا يعرفونني عن طريق كتابي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي كان قد صدر حديثاً ، والذي تلقاه الاخوان في اقبال وحماس ، وكانوا يتلقون في كل

حفاوة كل ضيف يمسح دمعتهم ويواسي قرحتهم ، ويخفف من غلواء الهموم والاحزان التي فتتت كبدهم أو يستنشقون الى حد ما فيه ريا الحب والحنان ، واليقين والايمان ، الذي كان يذكر مؤسس حركة الاخوان الامام الشهيد حسن البنا رحمه الله .

وظللت أواظب بهذه المناسبة على أن أقوم بالرحلة كل أيام الجمع الى ضاحية من ضواحي القاهرة ، و الى محافظة مجاورة ، ولابد أن يرافقنا في هذه الرحلات والجولات الشيخ محمد الغزالي ، انه كان ممثلا صادقاً للاخوان ، ومن رجالها الامناء البارزين ، يتمتع بشخصية جذابة ساحرة ، متزنة جامعة ، ولسان عذب ذرب ، وخطبة مؤثرة مثيرة ، عالماً أزهرياً بارزا وأكبر مؤلف وكاتب ومتحـــدث باسم الاخوان آنذاك ، وكان أكبر منافس في الاوساط الدينية للالحاد والتجدد والتغريب الذي بدأ يبيـــض ويفـــرخ ، ويستهزئ بالعقائد والحقائق الاسلامية بعد كبت حركة الاخوان ، وقد تعرفت عليه وأعجبت به من خلال دراستي لبعض مؤلفاته وكتاباته في اقامتي بالحجاز سنة 1950 م ، ودوى صوته في البرلمان المصري وصدع بالحق، مدوياً مجلجلا مخاطرا بنفسه في العهد الناصري ، حينما كممت الافواه ، وكسرت الاقلام وصار نداء الحق "كلمة حق عند سلطان جائر" وقد التقينا نحن الصديقين الزميلين فـي مكة المكرمة بعد ربع قرن كامل ، ولكن ما تمكنا من تبادل الحديث في طمأنينة فطلبنا الى الاخ الذي كان بجواره أن يفسح لي المكان ويمكن الصديقين من التحادث ، وظل الشيخ محمد الغزالي يتحدث في افاضة عن دور المحنة والايام العصيبة التي مرت على الاخوان ، والايام التي عرضت فيها كرامة العروبة والاسلام وشرفهم للامتهان ، وتعطلت الحياة فلا روح ولا حركة ، ولا صحو ولا يقظة ، وكيف استطاع في هذه الظروف القاسية والملابسات الدقيقة أن يؤدي

مسؤولية الداعي العالم المجاهد ، ودار الحديث بيننا طويلا عن الانتفاضة الجديدة للاخوان ، ومدى الامكانيات التي يمكن استغلالها في هذا الصدد .

انطباعات في مطار طرابلس :

وقد هبطت الطائرة على مطار طرابلس الغرب بعد اربع ساعات متواليات ، ولكن لم يسمح للمسافرين بالنزول ، وظللنا نلقي نظرة خاطفة ملؤها التلهف والتطلع على عاصمة المجاهدين السنوسيين التي أريقت على أرضها دماؤهم الزكية بسخاء ، فسقتها سقيا كريما ، فانبتت الاستقلال ، ولكن الحديث عنهم اليوم في هذه الارض قد يعرض المرء للخطر ، أولئك الذين نال البلد وأهله شرفهم السليب وعزهم الفقيد بفضل دمهم الفائر وايمانهم الثائر ، ودموعهم الغزار التي سكبوها في خلوات الليالي ، والهجيع الاخير الذي يغط فيه المرء غطيط البكر ... اي والله قد شذ نظير هذا النكران للجميل .

وقد جاءت محطة تونس بعد ساعة واحدة ، وسمح للمسافرين بالنزول ، وكان الماء موفرا على المطار ولكن لم يكن هناك امكان التطهر به والاستفادة منه على طريقة اسلامية ، فقد كانت الحمامات كالحمامات الغربية تماما ، ولكن سرنا تخصيص حجرة للصلاة باسم "بيت الصلاة" صلينا فيها الظهر ، وتعرفنا هناك ببعض الطلاب الهنود الذين يتعلمون في كلية الشريعة في جامعة الملك عبد العزيز بمكة .

ووصلت الطائرة بعد نحو ساعة الى الجزائر ، ولم يكن الخروج من الطائرة مسموحا به ههنا أيضا ، لأن العلاقة بين المغرب والجزائر قد توترت بعد "المسيرة الخضراء" وما تراءى لنا من داخل الطائرة ، كان يدل على سعة

المدينة وحسن تنظيمها ، وخصوبة هذه البلاد ، وقد وجدنا ههنا فرقاً كبيرا في الوقت .

في الـــدار البيضاء :

وأخيرا بدأت الطائرة تهبط على مطار الدار البيضاء (كاسابلانكا) ، وبدأ القلب يشعر بمزيج غريب من الفرح والهم ، فكان فرحاً قلقاً في وقت واحد ، وبدأنا نفكر فيما عسى ان نصنعه اذا كانت البرقية التي أرسلناها الى أمين جمعية الجامعات ، لم تصل بعد ، فلا نعرف المسافة بين الرباط ـ التي ينعقد فيها المؤتمر ـ وبين الدار البيضاء ، وأين نقضي الايام الخمسة قبل المؤتمر ؟ على كل هبطت الطائرة ، ونزلنا ، فما وجدنا أحدا يتلقانا ، وكانت الرحلة الاولى في بلد لا نعرف أحدا فيه ، فكنا واقفين على المطار في وضع ملؤه التردد والتفكير .

ان المدينة التي نزلناها هي مدينة المسلمين والعرب الذين يضرب بهم المثل في الحفاوة وحسن الوفادة والقرى ، فكنا واقفين في الوضع المقلق الذي وصفناه ، اذ تقدم أشخاص الى الشيخ عبد المحسن والاستاذ أبي بكـــر الجزائري ، وتلقوهما في حفاوة بالغة كعادتهم وعلمنا أنهم أعضاء "جماعة الدعوة الى الله" ، قد اطلعوا على وصولهما بهذه الطيارة بالبرقية ، وقد تقدم إلينا أناس أيضاً ، ولما اطلعوا على اسمي قالوا : ان لهم معرفة سابقة بي عن طريق كتبي ومؤلفاتي ، وكانوا قد حضروا بسيارة للشيخ عبد المحسن والاستاذ أبي بكر الجزائري ، وهنالك أخذ الشيخ عبد المحسن بيدي ويد مرافقي العزيز الاستاذ محمد الرابع وقال : "لابد أن تكونوا معنا" .

وغادرت السيارة المطار وتوجهنا الى الدار البيضاء التي كانت على مسافة نحو 20 ميلا من المطار ، ووصلنا

الى الدار البيضاء ، فعلمنا ان مضيفنا هو الاستاذ محمد الحريزي الوراق أحد أثرياء المدينة ، وصاحب عقار وممتلكات، ووقفت السيارة امام قصر شامخ يضارع البـلاط الملكي ، وتقاطر هناك اعضاء جماعة الدعوة الى الله في عـدد وفير ، مما علمنا ان الدعوة السلفية في اتسع نطاقها ولقيت استجابة كبيرة ، وكان المتوافدون كلهم يرحبون بالضيوف ترحيباً حارا ، تتهلل وجوهم ، ويقولون : "مرحباً بكم ، لا بأس عليكم" .

وقد غمرنا الفرح والعجب حينما دخل علينا بعد ساعة فجأة أستاذنا العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي ، الذي حضر للقاء هؤلاء الضيوف ـ الذين علم بقدومهم ـ من وطنه "مكناس" التي تقع على مسافة 100 ميل مـن الـدار البيضاء ، وليس بصعب تقدير الفرح الغامر الذي حصل للتلميذ والاستاذ اذ جمع الله بينهما على غير ميعاد ، وبدون ارادة ودام الحديث طويلا حول مد الدعوة الاسلامية وما يواكبها من عوائق ومشكلات ، وحول مواضيع علميـة وثقافية ودينية ، ثم صلينا العشاء وتناولنا العشاء ، ورغم ان القصر كان موفور السعة والراحة للضيوف ، ولكن الشيخ عبد المحسن بن عباد ألح على أن يكون نزولنـا نحـن الضيوف الاربعة في فندق ، فخرج بنا المضيف الى فندق ، وكانت في الدار البيضاء ثلاثة فنادق كبيرة على الترتيب الآتي : "الدار البيضاء" ، "مرحبا" ، "المنصـور" ، وتوجهنا أولا الى "المنصور" فقالوا ، عامر عامر ، يعني مشغول مملوء ، وما وجدنا هذا التعبير عن هذا الغرض في مكان ، وتستخدم الاقطار العربية الاخرى مكانها كلمـة "مليان" ، ولكن كلمة "عامر" أبلغ منها وأوفى بالمعنى ، وأقرب الى العربية الصميمة الاصيلة ، الامر الذي اكد رأيي الذي أراه منذ قديم ان القبائل العربية التي هاجرت من

الجزيرة العربية الى أقطار أخرى فتحها الاسلام ، لا تزال تحتفظ بالكلمات والتعبيرات العربية الاصيلة التي حملتها من نبعتها ولم يمسها حدثان الدهر بتغير ما على مضي القرون ، وعلى ذلك فان تراث العربية منثور في البلاد والاقطار العربية ، ولكنه مصون محفوظ غير مخدوش أو منقوص ، وهاك التعبير عن شي يستحسنه المرء ، فإن أهل العراق يقولون : "زين" ، وأهل الشام يقولون : "مليح" وأهل مصر يقولون : "كويس" ، وهو تصغير "كيس" ، وأهل الحجاز يقولون : "طيب" ، وعلمنا فيما بعد أن المغاربة يقولون : "خاوي" اذا أرادوا التعبير عن "الخلي" والبلاد العربية الاخرى تقول "خالي" أو "فاضي" .

وتوجهنا بعد "المنصور" الى فندق "مرحبا" ولكنه لم يرحب بنا ، وعلمنا أنه عامر كذلك ، وأخيرا قصدنا "الدار البيضاء" لنجرب الحظ ، ففسح لنا ذراعه ، ومد لنا باعه ، والفندق يشتمل على ثلاث مائة حجرة ، ولا يقل عن أكبر فندق في أوربا سعة وحسن إدارة .

زيارة الدار البيضاء والتجوال فيها

وكلمة موجزة عما رأيناه فيها :

يوم الخميس 6 مايو :

قضينا الليلة في راحة وهدوء ، كان الجو لطيفاً ، باردا الى حد ما ، ووجدنا في مستهل مايو البرودة التي نشعر بها في بلادنا في أواسط نوفمبر ، والطقس معتدل لان المدينة تقع على شاطئ البحر ، وأخبرنا موظف في الفندق مثقف أن "كاسابلانكا" كلمة اسبانية ، معناها "الدار البيضاء" وسبب اطلاق هذا الاسم على المدينة ،

أنه كانت هناك على هذا الساحل من المحيط الاطلانتيكي بيوت من مدر أو أكواخ كانت تطلى بالنورة البيضاء . وذلك حين كان الملاحون البرتغاليون يقومون بالملاحة والتجارة والتجارة على الساحل ، وكانوا يقولون : سنستجم عندما نصل "كاسابلانكا" ونتناول الطعام ، ومن هنالك أطلق هذا الاسم على هذه المدينة .

واعترف أن معلوماتي عن هذه المدينة العظيمة في المغرب – التي هي احدى المدينتين الكبيرتين في قارة أفريقيا ، ولا تفوقها الا "القاهرة" والتي تدعى "العاصمة التجارية" و "العاصمة المالية" – كانت قليلة جدا لا تغني غناء وما كنت أدري أنها في هذه الدرجة من السعة والعظمة وكثرة العمران وكثرة السكان ، وقد أحاطنا مضيفنا علماً بالامس أن نسبة سكانها تتراوح بين أربعة ملايين وستة ملايين ، وقرأت في مذكرة سجلت في 1932 م أن عدد سكانها لم يكن أكثر من مائتي ألف ، وتلك هي المدينة الشقية التي تسببت في استعباد فرنسا للمغرب كله ، فقد أسند انشاء ميناء "الدار البيضاء" في 1907 م الى شركة فرنسية على المقاولة ، ووقع خصام عنيف شديد في 30 يوليو بين العمال الفرنسيين والعمال العرب ، وذلك من أجل اهانة ضريح لشيخ من الشيوخ ، فثار العمال العرب ، ولقي 6 او 7 أوربيين مصرعهم ، واستغلت فرنسا هذا الحادث لاستعباد هذا البلد الخصب المغل ، وحولوا "الرباط" خراباً يباباً ، وتغلبوا على ولايات عديدة الى ان طوردوا في 1955 م من أرجاء المغرب كلياً ، واعتلى عرش الحكم السلطان محمد الخامس .

وتعرفنا بالامس على مائدة العشاء بتلميذ يحفظ صحيح مسلم متنا وسندا اسمه السيد عبد الحميد واتفقنا معه ، على انه سيزورنا اليوم في الفندق ، ويكون دليلا لنا عند زيارة الآثار التاريخية والامكنة الجديرة بالزيارة

في المدينة ، وقد حضر الفندق ، ولكنه لم يتوصل الينا ، فظللنا متعطلين الى الظهر ، واخيرا حضر مضيفنا بالامس الاستاذ محمد الحريزي الوراق ، وتوجه بنا الى منزل الشيخ الحاج مصطفى بن هاشم الذي كان من المقرر أن نتغدى عنده ، وطال المجلس بعد الغداء ، ورجعنا متأخرين .

وخرجنا بعد العصرلنتجول في المدينة ، فوجدناها نهاية في الجمال والظرف وطراز البناء ، واسعة جديدة البناء ، تقارب جنيف احدى مدن "سويسرا" ، وزرنا مكتبات عديدة تجدر بالذكر منها "مكتبة الرشاد" و "مكتبة الثقافة" واستطلعنا عن وجود بعض مؤلفاتنا ، فقالوا : انها موجودة فيها ، وصلينا المغرب في الجامع المحمدي وبعد الصلاة ألقى الاستاذ أبوبكر الجزائري درسه ، والتقى بنا جماعة من الشباب وقالوا : كيف الشيخ أبو الحسن الندوي ؟ ، فقلت : من أين تعرفونه ؟ قالوا بكتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ، فقلت انكم تتحدثون الآن مع مؤلف الكتاب ، وشف حديثهم عن قلقهم ، وتألمهم في ما يتصل بالدعاة الاسلاميين ، والحوادث الاخيرة .

وتعشينا عند صديق عربي آخر الاستاذ عمر محسن بن محمد ، وأهدى الي أحد الاخوان من سكان المدينة وتجارها الكبار نسختين من كتابي "مذكرات سائح في الشرق العربي" اشتراهما من بعض المكتبات ، وكتب في كلمات الاهداء ان الكتاب يهدى الى مؤلفه .

أداء صلاة الجمعة في مكناس 7 مايو :

تقرر في الليل أننا نتوجه بعد الفطور صباحاً الى "مكناس" ـ المدينة التاريخية القديمة ، واحدى المراكز الروحية ـ وقد ارتحل اليها أستاذنا الدكتور تقي الدين الهلالي بالامس نهارا ، وسنصلي الجمعة اليوم خلفه .

ولكن لم نتمكن من الرحلة في الساعة السابعة صباحاً من أجل بعض الرفقة واستأنفنا السفر في الساعة العاشرة ، وخرجت سيارتنا من الدار البيضاء ، فاستقبلنا مناظر بهيجة فاتنة ، وأودية خضراء تمثل الجمال الساحر ، وقد يخيل الينا ونحن نمر بها كأننا في كشمير .

وبعد قليل وصلنا "الرباط" ، العاصمة الحالية للمغرب ، تلك التي كان من المزمع قدومنا اليها بعد ثلاثة أيام ، للحضور في المؤتمر ، وبما أننا تأخرنا في بدء الرحلة وصلنا الى مكناس وقد حان وقت الجمعة ، فلم نستطع أن نصل الى المسجد الذي يؤم الجمعة فيه فضيلة الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي ، فصلينا الجمعة في جامع ايران ، اكبر مسجد في المدينة ، وكان موضوع خطبة الخطيب الآية الكريمة "واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" ، مما علمنا أنه عالم حريص على اتباع السنة يرغب في الاصلاح ، وبعد الصلاة صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاة جماعة ، ودعوا دعوة جماعية ، وتغدينا في منزل الحاج مصطفى بن سعيد ، في مأدبة أقامتها "جماعة الدعوة الى الله" ، وكانت اقامتنا في فندق "الريف" ، وتعشينا في نفس المنزل وبعد تناول العشاء أشار الي أستاذي الدكتور تقي الدين الهلالي ان أتحدث الى الاخوة الحاضرين وان يكون الموضوع هو التوحيد ، فتحدثت حول مكانة النبوة ، وحاجة البشرية اليها في الهداية ، وأن معرفة الله معرفة صحيحة منوطة بتعاليم النبوة على صاحبها الصلاة والسلام .

وتأسفنا على أننا لم نتمكن من قلة الوقت والارتباط بالرفقة أن نزور الامكنة والآثار ذات القيمة التاريخية ، وأضرحة العلماء والمشايخ .

مدينة فاس التاريخية ، يوم السبت 8 مايو :

ومضينا في الصباح الى مدينة "فاس" ، وكانت الطريق اليها جميلة خضراء ، وهي احدى المدينتين الكبيرتين في المغرب ، ومن أهم مراكز العلم والدين والتربية الروحية فيها ، ومكانتها في المغرب بالقياس الى مركزها العلمي والثقافي وكثرة إنجاب الرجال والنوابغ وأئمة الفنون ، هي مكانة دلهي ، ولكنئو ، ولاهو ، وملتان ، في شبه القارة الهندية ، وقد وضع الحجر الاساسي لهذه المدينة يد سعيدة في وقت سعيد ، فقد أسسها سيدي ادريس الحسني الثاني فرع النبغة النبوية الكريمة ـ في شهر ربيع الاول 192 هـ وخطط دائرة بفأسه ودعا متضرعاً الى ربه فقال " "اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك ، واجعل اهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها".

وقد تقبل الله دعاءه بقبول حسن ، فلا تزال المدينة منذ نحو 12 قرناً منبع العلوم والفنون ، وتزدان بجامعة القرويين ، أقدم وأعرق جامعة في العالم الاسلامي ، لم تتوقف فيها قط الدراسة والتعليم منذ أن أسست عبر تاريخها الطويل ، مهما اختل نظام الحكم ، وعمت الفوضى في البلد ، وتخرج منها أفاضل العلماء في المغرب ، ودرسوا فيها وظلت مركز الحديث والفقه والتفسير وعلم التوحيد قروناً طوالا ، وقد أهدت الينا وزارة المعارف لدى اقامتنا بالرباط كتاباً قيماً في مجلدات باسم "جامعة القرويين" ، يتحدث في تفصيل عن تاريخها ، وعن المتخرجين فيها ، وعن أحوالها في كل دور من أدوارها ، ولا يمكن في هذه العجالة القاء الضوء الكافي على خدماتها العلمية والدينية والفكرية ، وعلى الدور القيم الذي قامت به في حياة المغاربة الدينية والعلمية

والروحانية والاخلاقية والسياسية ، وقد أدى متخرجوها ـ كالمعاهد والمدارس الاسلامية الكبرى في الهند ـ دورا بطوليا في تحرير البلد من الاستعمار الاجنبي الجاثم على صدره ، وفيما يتعلق بمكافحة الفتن المعاصرة ، وكان أبناؤها البررة فعلا طلائع كفاح التحرير ، وهم الذين أثاروا النخوة العربية ، والغيرة الاسلامية ، والحمية الدينية وروح الجهاد في سبيل الله ، وقد لا يوجد في البلد قائد سياسي او رجل اسلامي ، او مجاهد ديني ، لم يعب من منهلها العلمي الفياض بطريق مباشر او غير مباشر .

وفي سنة 1930 م حينما حاول الفرنسيون أن يوقعوا العداوة والبغضاء بين البربر ـ الذين هم سكان هذه المناطق الاصليون ـ وبين العرب ، وان يفصلوا أولئك عن هؤلاء ، وعملوا على اثارة شعور القومية في البربر ، والرغبة في احتضان الحضارة الجاهلية واحياء الاعراف والتقاليد ، وقوانين الغابات البربرية التي عاشوها فيما قبل دخولهم في حظيرة الاسلام ، واستبدال اللغة البربرية القديمة باللغة العربية ، وجعلها لغة الخطابة والكتابة ، والتأليف والتصنيف ، والمكاتبة والمراسلة ، واختراع خط جديد لذلك ، وكان ذلك تكتيكا خبيثا ، واستراتيجية ماكرة ، لفصلهم عن الاسلام والعرب ، كانت تستطيع ان تجذبهم جذب المغناطيس للقطع الحديدية ، وتؤثر فيهم تأثير السحر ، وقد نجح الفرنسيون في تنفيذ "الظهير البربري(1)" بحيل من بعض أفراد الحكومة المقربين اليها ، والمقدمين لها القرابين ، فكان ذلك فتنة عمياء ، ربما لا يوجد نظيرها في تاريخ الاستعمار الغربي ، وكانت محنة قاسية دقيقة لغيرة العرب والبربر ، وذكائهم ، يتوقف عليها مصير الاسلام في هذه البلاد ، وتلك هي قصة أواخر أيام تحصيلي

(1) يستخدم المغاربة للمرسوم الملكي كلمة "الظهير" .

وكنت قد بلغت الرشد ، ولا أزال أتذكر ان الصحف والمجلات العربية التي كانت تعبر تعبيرا صادقاً ـ وكانت في طليعتها مجلة "الفتح" المصرية ـ عن عواطف المسلمين ، كانت زاخرة بالمقالات التي تتعلق بالقضية ، والتي كانت تحذر عن مغبة هذه المكيدة الماكرة المشئومة لو نجحت ، وهنالك أيضاً قامت جامعة القرويين بالتوجيه المطلوب وأنارت الطريق أمام الشعب ، وأوصت الامة كلها ان تداوم على قراءة الورد الاتي في جميع المساجد والمدارس :

"يالطيف ! ألطف بنا فيما جرت به المقادر ، ولا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر" .

ولم يمض الا قليل حتى صار الورد على ألسنة الشعب ، ودوت البلاد بالتضرع والابتهال الى الله ، وبطل سحر السامري الذي أرادت فرنسا ، ان تستخدمه ، وصان الله البربر من أن يقعوا فريسة في هذه الحبالة "اللبقة" ، ولم يقع هناك أي تحول في وفائهم وولائهم للاسلام ولحضارته ، وافتضحت المكيدة التي نسجتها يد فرنسا الآثمة .

وكانت "مراكش" و "فاس" عاصمة الدولة مرة بعد أخرى ، ولئن كانت فاس لم تعد الآن عاصمة الحكم والسياسة ولكنها لا تزال عاصمة العلم والدين والثقافة ، ولا يزال ضريح مؤسسها سيدي ادريس الثاني في أرضها ، الذي يعرف بزاوية مولاي ادريس(1) ، كما أنها تمتاز بوجود قبور كثير من العلماء وعباد الله والمشايخ ، أمثال سيدي عبد العزيز الدباغ والشيخ عبد القادر الفاسي .

وذهبنا توا الى قصر الحاج مصطفى بن هاشم الذي يقع في مكان ذي منظر رائع خارج المدينة ، وكان الشيخ تقي الدين الهلالي نزيلا هناك ، فجلسنا اليه طويلا ،

(1) يدعو المغاربة السادات الحسنية بـ "مولاي" ـ

وتجددت ذكريات لكهنئو وتحدثنا عن أيام اقامته بهـــا وتدريسه في دار العلوم ندوة العلماء ، وبعدما اخذنا حظنا من الاستجمام خرجنا لزيارة جامعة القرويين الجديدة ، وقد أقيمت جامعة جديدة تحمل اسم "جامعة القرويين" ، أما جامعة القرويين القديمة فتحولت الى أثر تاريخي يصلي فيها الناس ويزورونها ، ويشابه بناء الجامعة الذي لم يتم بعد ثكنة القوات .

وبدأنا بكلية الآداب ، وقابلنا الاستاذ الدكتور عبد السلام الهراس ، أستاذ الكلية الفاضل ، والاديب الاسلامي المشغوف بالدراسة ، وكان كتابي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" هو سبب تعرفه بي ، ذلك الذي كان قد قرأه عقب صدوره لاول مرة وكان يقول : "انني لا اعتبر من لم يقرأ هذا الكتاب مثقفاً" .

وتحمل كلية الآداب في جامعات اليوم مكانة التوجيه الفكـري كقسم الفلسفـــة في الماضـــي أو العلـــم في أوائل القرن العشرين ، وتتوقف تربية الشباب الذكي ، الفكرية والخلقية على اتجاهها الصحيح أو المحرف ، وعلى أساتذتها واسلاميتهم ، أو تحررهم الفكري وشذوذهم العقلي، أو تحاملهم على الاسلام ، وهنالك تزداد أهمية وجـــود الاساتذة اولي الفكر المستقيم والعقل السليم . فسرنا جدا أن يكون مثل الدكتور عبد السلام الهراس ـ الذي يمتاز بالدعوة المتحمسة الى الادب الصالح ، والقيم والمثـــل الاسلامية ـ أستاذا في هذه الكلية ، وقد ذهب بنا الى عميد الكلية الدكتور محمد التازي ، وكان الحديث معه على موضوع الادب ومفهومه وحدوده .

ثم انتقلنا الى كلية الشريعة ، والتقينا بعميدهـا مولاي عبد الواحد العلوي ، وظل يحادثنا طويلا بلسانه السلسال ، والتقينا هناك مع الاستاذ الدكتور صالـــح

الاشتر ، وسرنا هذا اللقاء المفاجئ معه ،فقد سبقت معرفتي واجتماعاتي به في جامعة دمشق حينما زرتها استاذا محاضرا على دعوة منها في 1956 م ، وكان من كبار أساتذة الادب والنحو فيها ، وهو يمتاز بنظر عميق وذوق علمي ، وهو أديب فاضل ، وجددنا طويلا ذكريات الايام الحلوة في دمشق ، تلك التي كانت حقاً من أسعد أيام حياتي وأجملها .

وتوجهنا من هنا الى جامع القرويين ، الذي يقع في المناطق القديمة للمدينة التي لا تزال تمثل المدينة العريقة ، وهبت علينا نفحات الانس والحب التي افتقدناها في المدينة الجديدة ، كانت السكك الضيقة مفروشة بالاحجار ، ونزلت الامطار ، فكنا نتحفظ في المشي ، وكنا نتصور كأننا نمر بأحياء قديمة في لكهنئو أو حيدآباد ، فهذه سوق الصباغين ، وتلك سوق النحاسين ، والحمار هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات في أغلب الاحيان ، وهو يصعد السلم متماسك الخطو ، ورأينا رجلا من المشغوفين بالنفث في العقد والسحر مشغولا بكتابة التمائم والحجب .

وزرنا مكتبة القرويين التي تشتمل على ثلاثين ألف كتاب مطبوع ، وستة آلاف كتاب مخطوط ، ولم يكن لنوفي المكتبة حقها من الزيارة في هذا الوقت القصير ، لان ذلك يحتاج الى أسابيع ، ولكننا قلنا في أنفسنا : ما لا يدرك جله لا يترك كله ، فنهضنا لنلقي نظرة ـ تحت اشراف مدير المكتبة ابن عم زعيم المغرب وصديقنا الفاضل المرحوم الاستاذ علال الفاسي ، ألا وهو الشيخ محمد سعيد ـ على ما تشتمل عليه من مخطوطات ونوادر الكتب ، كان كل مؤلف مغربي يتمنى أن يتشرف كتابه بالدخول في هذه المكتبة العظيمة التي كانت موضع اهتمام العلماء المغاربة ومهبط أنظارهم .

وكان من الكتب التي استطعنا ان نلقي عليها نظرة خاطفة شرح مؤطا الامام مالك في مجلدين ، مكتوبًا في الرق وهو من نوادر المخطوطات ، وهو من مؤلفات الجزولي ورأينا نسخة مخطوطة لكتاب ساعد البغدادي "الفصوص في اللغة" انتسخت في اواخر القرن العاشر ، ولا يوجد للكتاب الا نسختان في المغرب كله ، ورأينا نسخة خطية لكتاب الهروي "كتاب الغريبين" الذي يشتمل على غريب القرآن ، وغريب الحديث ،انتسخت في القرن الثامن ، ورأينا نسخة للقرآن الكريم بخط والدة سلطان المغرب يعقوب المريني ، في كل جزء منها جزءان ، كتب في القرن الثامن ، ورأينا كتاب ابن الغروم المرادي "تنبيه الانام" والتزم خطاطه أن يكتب "الله" و "محمد" في كل مكان بماء الذهب ، ومن أقدم المخطوطات نسخة للمدونة للقرن الخامس، والترجمة العربية لكتاب الخيل للقرن السادس ، ومن الكتب التي كانت بخط مؤلفيها ، منظومة في فن الطب لابن طفيل مؤلف رسالة "حي بن يقظان" ونسخة لمقدمة ابن خلدون عليها تعليق بخط ابن خلدون ، وبها زيادات على النسخة المتداولة بأيدي الناس ، ورأينا نسخة خطية لسيرة ابن اسحاق ، على حين شاع في الناس انه لا توجد لها نسخة في العالم ، ومما يجدر بالذكر بالقياس الى الغرابة والظرافة هو نسخة كتاب "البيان والتحصيل" في الفقه المالكي من مؤلفات جد ابن رشد ، تشتمل على 370 صفحة ، وكل صفحة مكتوبة على رق واحد نزع من عضد الغزال ، وعلى ذلك فاستهلكت الكتابة 370 غزالا ، وقال لي مرافق أن غابات كثيرة أصبحت مقفرة من الغزال ، وذلك ان دل على شيء فانما يدل على شغف العلماء السلف بالعلم ، وتقديرهم له تقديرا مستوفى .

وخرجنا من المكتبة والقلب مأخوذ بهذا التراث القلمي النادر ، ثم أخذنا الطريق الى جامع القرويين ،

وتجولنا في رواق المسجد الداخلي وفي فنائه الذي قد دوى في جنباته حيناً من الدهر صوت "قال الله و "قال الرسول" ، وظل أئمة العلوم وعلماء الفنون يعمرون رحابه بالدراسة والتدريس والبحث والتحقيق ، وقد رأيناها يخيم عليها الصمت والهدوء ، وصدق عنها ما قاله الشاعر الاردي في البيتين الآتيين :

"حينما كانت الحديقة تتزين بالازهار والرياحين تعمر جنباتها ألوف من العندليب بنشيدها العذب وتغريدها الحلو ، وصحا النرجس يوماً فلم ير شيئاً سوى الاشواك ، وعاد البستاني المسكين يقلب كفيه ويقول باكياً : كانت هناك ازهار لم تتفتح ، وكانت ههنا أزهار متفتحة فائحة" .

وصعدنا العلالي ورأينا حزولة (الساعة الشمسية) ، والعجيب أن بالمسجد انحرافا عن القبلة وأبقاه الناس حتى الآن على ما كان عليه .

ورجعنا بقلب متحسر على ما رأيناه الى مضيفنا الحاج مصطفى الفلالي ، وتغدينا ، وكان نزولنا في فندق (Holiday Inn) فقصدناه ، واسترحنا ، وحضرنا بعد المغرب حفلة الشاي في منزل الدكتور الهراس ، ولقينا هناك الاستاذ شاهد بوشيخي أستاذ في كلية الآداب ، ووجدناه رجلا فاضلا وشاباً وقورا ، كان معجباً بحركة الدعوة والتبليغ التي أسسها الشيخ محمد الياس الكاندهلوي والتي مقرها في دهلي "الهند" وقد ساهم في بعض جولاتها ورحلاتها ، من أولي الفكر الصحيح ، وتعشينا عند الحاج مصطفى في منزله ورجعنا الى الفندق .

زيارة "افران" ، 9 مايو الاحد :

وتناولنا الفطور عند الدكتور الهراس ، وتفضل هناك مولاي مصطفى العلوي عميد "دار الحديث الحسنية"

بالرباط ، وعضو المجلس الاعلى للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، الذي نتشرف منذ اعوام بلقائه بالمدينة المنورة مرة أو مرتين في العام بمناسبة الحضور في دورات المجلس ، فتلقانا بحب واكرام ، ودعانا الى زيارة "افران" التي تحل محل كشمير في المغرب ، وانطلقنا في الساعة التاسعة والنصف وعرجنا على منزل رئيس مجلس العلماء ومنه توجهنا الى "افران" .

وكانت الطريق كلها جميلة ذات مناظر طبيعية فاتنة ، ووصلنا ظهرا الى فندق كان غاية في الاناقة والظرافة والتنسيق ، وانتظرنا هناك الطلاب الذين رافقونا من جدة ، وكان من المقرر أن يتغدوا في الفندق ، بعد زيارة الامكنة الجديرة بالزيارة ، وقد وصلوا بعد ما صلينا الظهر ، وكانت جلستي بجنب الشيخ محمد الغزالي ، فتمتعت بلذيذ الطعام وجميل الكلام في وقت واحد ، وتليت علينا أبيات مختارة لشعراء مطبوعين وساهم في ذلك الشيخ محمد الغزالي مساهمة كبيرة ، وتوجهنا بعد الغداء الى الرباط ، ووصلناها قبل المغرب بنصف ساعة ، ونزلنا في فندق "هلتون

في الرباط عاصمة المغرب

10 مايو يوم الاثنين .

وكان اليوم أول يوم من أيام اقامتنا بالعاصمة "رباط الفتح" وقد وضع الحجر الاساسي للمدينة في مناسبة سعيدة جدا ، حين كان جد المسلمين صاعدا ، وكان النجاح حليفهم في كل عمل يقبلون عليه ، والانتصار قرينهم في كل معركة يخوضونها ، أعني بعد الانتصار الرائع في معركة الزلاقة 15 رجب 479 هـ ، التي هزم فيها أمير المسلمين يوسف بن

تاشفين مؤسس دولة المرابطين المسيحيين هزيمة نكراء ، أولئك الذين كانوا يغيرون من حين لآخر على الحكومات الاسلامية العربية ، في "اشبيلية" و "قرطبة" وضرب الحكم الاسلامي بجرانه في الاندلس ، فكان مرهوب الجانب نحو قرن كامل ، ولكن في نفس الوقت ازداد نفوذ الحكومة المسيحية في "طليطلة (TOLADDO) التي نصبت نفسها لاقصاء المسلمين من أرض الاندلس ، هذا في جانب ، وفي جانب آخر ضعف في المسلمين الوعي السياسي ، وعمتهم روح الشقـــــاق والافتراق ، التي هي داؤهم المتوارث، فناموا عن مطامع الاعداء ، ولم يحسبوا حساباً لاعداداتهم وعزائمهم ، وما كانوا يبيتون لهم في الظلام ، وكل ذلك وضع البقية الباقية من النفوذ الاسلامي والسلطة الاسلامية المنهارة في موقف الصراع بين الحياة والممات ، ولم يكن هناك من يقف بجانبهم في هذه الساعات الرهيبة العصيبة الا الحكومات الاسلامية المغربية الفتية المليئة بالطموح التي أنقذتها فعلا مرات عديدة من مخالب الموت الزؤام ، وقد منـــوا بمثل هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة القاصمـــة أواخر القرن السادس المسيحي ، حين حاول حاكم طليطلة المسيحي "الفونس" أن يطفئ نور الحكومة الاسلامية للابد ، وكانت في افريقيا الشمالية آنذاك حكومـــة الموحديـــن القوية التي كان داعيها الاول محمد بن تومرت ومؤسسها عبد المؤمن بن علي (558 هـ) الذي كان بربري الاصـــل والذي كان نافذ الكلمة لا يعصى له أمر فيما بين "برقة" و "طرابلس" الى "طنجة" و "تطوان" أعني الى ساحل المحيط الاطلنطي ، وفي هذه المناطق الواسعة لا يخطب الخطيب في الجمعة الا بأسماء خلفائهم .

وكان يعتلي عرش الحكم آنذاك حفيد عبد المؤمن أبو يوسف يعقوب المنصور (554 ــ595 هـ) الذي كان يعاصر

شهاب الدين الغوري ملك الهند في ذلك العهد وتجرأ "الفونس" الحاكم المسيحي كثيرا حتى وجه الى يعقوب رسالة بالعربية يهدده بالزحف اليه ، وغزوه في عقر داره ، وكتب يتندر به : "انك اذا لم تبادر بالحضور الينا مجتازا هذا البحر ، فإني سأحضر لديك "اكراماً" لك ، فما كان من هذا الرجل المؤمن الغيور ـ حفيد عبد المؤمن ـ الا أن كتب على الجانب الآخر من الرسالة ردا عليها الآيـة الكريمة التي كتبها سيدنا سليمان بن داود عليه السلام الى ملكة سبا ردا على رسالتها : "ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون" وأعقبها بهذه الكلمات "الجواب ما ترى ، لا ما تسمع" ، نفس الجملة التي قالها الخليفة العباسي المعتصم بالله ردا على كتاب السلطان البازنطيني .

على كل فإنه أمر بجنوده الاسلاميـة أن تتجمع ، وتوجه بها في 590 هـ الى الاندلس ، وكانت المجابهة في شعبان 591 هـ بين الجنود الاسلامية والجنود المسيحية في ميدان مرج الحديد (هسبانيا) وهزم يعقوب المنصور الفونس هزيمة عادت مضرب المثل في اسبانيا الى سنوات طويلة وتماثل هذه المعركة ، المعركة الاخيرة في ميدان باني بت بالهند بين المسلمين والمرهنة .

ورجع السلطان يعقوب بأربعين ألفاً من الاسرى وبمائة ألف من البغال وثمانين ألفاً من الافراس ، واربعمائة الف من الحمير ، وستين ألفاً من الدروع ، وخمسين ألفاً مـن الخيام . وأسس مدينة شكرا لله باسم "رباط الفتح" تذكارا لهذا الفتح المبين وهي بجنب "سلا" المدينة التاريخية المباركة ، وانما أسسها السلطان الطموح بهذا الموطن ، وفي جانب القبلة من "بحر سلا" لكونه يحمل اهمية استراتيجية تماماً كتخطيط مدينة الاسكندرية بمصر .

وبعد تناول الفطور في الصباح انبعث في قلبي الرغبة الملحة أن اقيم انطباعاتي ، في ضوء حاضر هذه البلاد وغابرها ، والحديث الاحدث من التجارب التي كانت حصيلة رحلاتي وزياراتي ولقاءاتي وجولاتي الموسعة في هاته البلاد والاقطار الاسلامية ، فقدأتيح لي ان أتحدث الى ابناء كل بلد وطأته قدماي ، وعلى ذلك فكانت مقالات و "اسمعيات" أمثال "اسمعي يا مصر" و "اسمعي يا سوريا" و "اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)" واسمعي يا ايران" ، وكان ذلك رسالة الى هذه البلاد وهدية لها ... في وقت واحد ، وتلك هي زيارتي الاولى للمغرب التي قدرت لي حين مالت شمس الحياة الى الغروب ، على كل بدأت مقالا بعنوان "نحن الآن في المغرب" الذي سيقرأه القراء الكرام في نهاية هذا الكتاب ، فسوف تبتدئ منذ الغد نشاطات المؤتمر ، ومن يدري ، هل أجد فرصة للكتابة أو لا ، واستهلكت الكتابة معظم أوقاتي ، وكانت خلالها لقاءات مع بعض الاخوة أيضاً ، وقد وجدنا مساعدة غالية من الاخ العزيز الاستاذ ظهور السلام الندوي ، الذي يتطوع بمساهمة موفورة في اعداد المؤتمر .

الساعة الخامسة مساء :

وقدم فندق "هلتون" رئيس جمعية الجامعات الاسلامية الاستاذ محمد الفاسي يرحب بالضيوف ، وهو ذو شخصية وقور في البلد ، وقد سبق ان شغل منصب عمادة جامعة محمد الخامس ووزارة الثقافة والتعليم الاهلي وهو الآن رئيس "اللجنة الوطنية" بيونسكو ومندوب لجنتها الدولية في المغرب ، وبجانب ذلك هو عضو في "مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو أستاذ جلالة الملك الحسن الثاني ، وقد حضر بهذه المناسبة ممثلو الاقطار الكثيرة ، وكان

لقاؤنا معهم جميعاً ، وكان تبادل الآراء طويلا في مواضيع أخلاقية وعلمية .

وكان في الساعة السادسة برنامج زيارة "دار الحديث الحسنية" وقد اشترك في ذلك عدد من الضيوف وقد زرنا متجولين مبنى هذه الدار الذي وقفه أحد من المسلمين الغيارى ، ومن المؤسف أننا لم نتشرف بهذه المناسبة بلقاء صديقنا المحترم الاستاذ عمر بهاء الدين الاميري (سفير سوريا السابق بباكستان) والاستاذ في الدار منذ أعوام ، فقد كان غائباً عن الرباط ، ورجعنا بعد هذه الزيارة الى الفندق .

وحضر في الساعة السابعة والنصف مساء الاستاذ أبوبكر القادري يقابلني ، وتلاقينا في حب وحماس ، وأبدى عن علاقته القلبية الوطيدة ، وهو من الشخصيات الاسلامية البارزة في المغرب ، وعضو اللجنة التنفيذية في حزب الاستقلال الذي أسسه المرحوم الاستاذ علال الفاسي ، ورئيس جمعية شباب النهضة الاسلامية ، ورئيس تحرير مجلة "الايمان" وهو ذو عناية كبيرة ـ بعد الاستاذ علال الفاسي ـ بقضايا مسلمي الهند ـ وكان اجتماعي به في 1965 م في مؤتمر رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، وقد عملنا معاً في لجنة ، وسررت جدا بلقائه وشعرت بالتجاوب الفكري والانسجام الروحي بيني وبينه .

وأقام لنا الليلة مأدبة عشاء في منزله الدكتور عبد الكريم الخطيب ، وهو كذلك من الشخصيات البارزة في المغرب ، وهو رغم أنه طبيب يمتاز بذوق علمي رفيع ويعنى عناية كبيرة بالقضايا الاسلامية والوطنية ، وكان وزيرا أيضاً في حكومة سابقة ، وهو الآن رئيس حزب سياسي يحمل اسم "الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية" وحضر المأدبة نخبة من الضيوف وزبدة من الرجال ، من بينهم

الدكتور المهدي بنعبود الذي كان منذ مدة قصيرة سفير المغرب في "واشنطن" ويعتبر من رجال الفكر الاسلامي الكبار في المغرب ، وله نصيب مشكور في نشر الافكار الاسلامية في الطبقة المثقفة ، وهو ان كان طبيباً في الطب البشري ، لكنه بجانب ذلك أستاذ علم النفس (سيكولوجيا) في كلية الآداب بالرباط ، وكذلك كان من خيرة الضيوف الدكتور رشدي فكار ، وهو مصري وأستاذ علم الاجتماع (سوسيولوجيا) في كلية الآداب بالرباط ، ومؤلف عدد من كتب الفلسفة في اللغة الفرنسية ، وعضو الاكاديمية العلمية في فرنسا ، وقد رشح اسمه هذا العام لنيل جائزة نوبل ، ومنهم الدكتور صبحي صالح مؤلف كتب عديدة ، ومن علماء لبنان الكبار ، وكان لقائي الاول معه في منزل الشيخ حسن خالد مفتي جمهورية لبنان بمناسبة جولة وفد رابطة العالم الاسلامي في 1973 م ، وهو الذي ألقى كلمة تقديم وتعريف وترحيب في الحفلة التي عقدت تكريماً للوفد ، وكان فيهم الاستاذ أبوبكر القادري المذكور آنفاً ، وتاجر سوداني كبير ، يساهم في الحركات الاسلامية مساهمة فعالة ويقيم في الرباط منذ مدة طويلة .

وكان منزل الدكتور عبد الكريم الخطيب نموذجاً لطراز الفن الاندلسي المعماري والتمدن الاندلسي ، فقد رأينا نفس الطريق للتزيين والاستضاءة ، والتعاريج والرسوم التي تراها في الصور ، والتي رأيناها في قصور وبلاطات الحمراء (غرناطة) ، والواقع ان هناك اشتراكاً فيما يتعلق بحضارة الاندلس الاسلامية وحضارة المغرب الاقصى ، لانهما تنبعان من اصل واحد ، ووليدتا ذوق التجمل والتأنق المشترك الذي اطرد فيه التبادل والاخذ والرد ، وان ابناء الاسلام من المغرب الاقصى ، هم الذين عمروا اسبانيا ، ولما سحب المسلمون من اسبانيا ونبت بهم أرضها وسماؤها ،

فإن المغرب هو الذي رحب بهم وأكرم مثواهم ، وطبعاً قد جاؤوا من الاندلس بمدنيتهم وذوقهم ، وطريق اجتماعهم وظلوا يحتضنونه قروناً ، وعلى ذلك التقـــى التياران اللذان لم يكن احدهما غريباً عن الآخر .

وكان حديث المائدة طويل النفس ، وتطـرق الى أي مدى تصح الثقة بصحة الحـوادث وقصص الاختلافات والمشاجرات النابعة بين الصحابة أيام سيدنا على وسيدنا عثمان رضي الله عنهما ، والاعتماد عليها تاريخياً ؟ وقد تحولت الى حرب أهلية ، الامر الذي يرويه التاريخ في صورة مهيبة قد تجعل المرء ـ الذي لم تتعمق دراسته ولـم تتوسع معلوماته ولم يعرف معرفة صحيحة تأثير الصحبة النبوية وقوة التربية النبوية على التحويل والتغيير وقدرة الاسلام على التأثير والقلب ـ يستنتج منها انهم عادوا تتحكم فيها الانانية والاهواء بمقتضى البشرية ، ولم يعودوا على المستوى الخلقي الذي وضعهم عليه نبيهم الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن العجيب ان الاستاذ رشدي فكار ـ وهو مـن المثقفين ثقافة عصرية وأستاذ في علم الاجتماع ـ كـان يحارب هذا التصور الخاطئ في أسلوب قوي ، يمده قـوة البيان وطلاقة اللسان ،وحقيقة الواقع ، ويؤكد ان هـذه الروايات لا تخلو من المبالغة وتجسيم الوقائع وتهويلها ، وأن الصحابة كلهم ظلوا على مستواهم الخلقي الذي تركهم عليه مربيهم الاعظم عند لحوقه بالرفيق الاعلى ، وكل ما عاشوه من الحوادث كان رمزا طبيعياً على الحياة ، ولا يخلو من ذلك أي مجتمع انساني حي ـ اذا لم يكن صناعياً ـ ولذلك كله أسباب منطقية معقولة مقبولة تدل على ان الذي حدث كان ذا نتائج مثمرة ايجابية ، ولـو وقع الصحابة رضي الله عنهم فريسة الانانية والاهواء لما

بقي على ظهر الارض مجتمع نقدمه مجتمعا مثاليا ، أما الدكتور صبحي صالح فكان يضغط على أنه لا يمكن غض البصر عن القصص التاريخية ، وان تلك الحوادث كلها كانت وليدة النزوات النفسية التي لا يخلو عنها بشر ولا يجوز لنا أن نعرض التاريخ على غير ما هو عليه ، وانتهينا من الطعام ورجعنا الى الفندق .

افتتاح المؤتمر ، وحديثي فيه ، وأشغال النهار الاخرى

11 مايو الثلاثاء :

وفي الساعة العاشرة افتتح المؤتمر ، واستهله وزير التعليم العالي (MINISTER OF HIGHER EDUCATION) الاستاذ عبد اللطيف بنعبد الجليل بكلمته ، التي رحب فيها بالضيوف ، وأشاد بالاغراض التي يرمي اليها المؤتمر ، وأعقبه رئيس المؤتمر الاستاذ محمد الفاسي بكلمته القيمة ذات الطابع العلمي ، ثـــم تناوب خمسة ضيوف بكلماتهم على ايماء من الرئيس كان من بينهم كاتب هذه السطور .

وبدأت حديثي قائلا : انني أتشرف الآن بتمثيل رابطة العالم الاسلامي ، بمكة المكرمة التي يقع على علو من مقرها الرئيسي ، غار حراء الذي نزل فيه أول وحي الهي على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومما يسترعي انتباه العاقل ويدعوه الى التفكير أن هذا الوحي الالهي الاول لم يؤكد الحاجة الى العلم ويشيد بعظمته والاقرار بفضله فحسب ، بل انه لم يغض البصر عن وسيلته الدائمة وخادمه المخلص "القلم" ، وقد ربط به مصير العلم فقال عز من قائل : "اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم" .

وأضفت قائلا : انه لغز من ألغاز التاريخ أن الحركة

العلمية الكبرى في العالم الانساني ، والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشري ، نبعتا من نبوة نبي أمي ! ان ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة ـ التي كانت هذه الامة حاملة لوائها ـ بهذه الامية ، يثير تساؤلا تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ اجابة مقنعة ، وصدق الشاعر الايراني والحكيم الرباني الشيخ مصلح الدين الشيرازي المعروف بسعدي حينما قال : "ان اليتيم الذي لم يتلقن مبادئ العلم ، استطاع ان ينسخ مكتبات الاديان ، وجعلها لا تغني غناء ولا تحمل معنى" .

لكن المرء قد يفهم من هذا البيت ان معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد كانت سلبية ، حيث انه نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجردت عن رسالتها ودورها الايجابي ، وبدأت تمثل دور التضليل ونشر الاباطيل ، لكن الواقع ان هذه المعجزة كانت ايجابية بناءة أكثر من ان تكون سلبية ، انه نسخ ذخيرة كتب محدودة لكنه حبا الانسانية بمكتبات واسعة زاخرة ينقطع نظيرها في تاريخ الامم .

ثم قلت ان الانقلاب الذي أحدثته النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام في دنيا العلوم يتجلى في مظهرين كبيرين ، ان الجانب الاول من جوانب دورها الانقلابي انها وحدت بين العلوم الانسانية المتوزعة في وحدات (UNITS) كان كل علم وحدة بنفسها ، ولم تكن كل وحدة بعيدة عن الاخرى ومجهولة لها ، بل كانت متحاربة متصارعة ، لا تلتقي على غاية ، ولا تتعاون في غرض .

والمظهر الثاني أنها كانت كلها تؤدي الى نتائج مختلفة ، وتفضي الى غايات متنافية ، فكل من الفلسفة ،

والادب وعلم الاخلاق وعلوم الرياضة كان يعيش في دنياه منطوياً على نفسه منشغلا بذاته ، مفصولا عن الآخر ، لا يستطيع أن يهدي الى فاطر السماوات والارض والى معرفة ذاته وصفاته ، ومعرفة الاغراض التي يـهدف اليها وجود هذا العالم والكون ، والقيمة الحقيقية للحياة الانسانية ، ووحدة الارادة والقدرة الالهية القاهرة التي تتحكم في نظام العالم ، والاتجاه بالحياة والاخلاق الانسانـية الى وجهتها الصحيحة ، ولكن النبوة المحمدية والتعاليم النبوية استطاعت أن تخرط هذه الوحدات المنتشرة المبعثرة في سلك واحد ، وجعلها متعاونة متعاضدة ، ووسيلة صحيحة لمعرفة الله وذاته وصفاته ، والكون وغاياته ، وقد صـور القرآن الكريم كل ذلك تصويرا دقيقاً حين قال : "الذين يتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا" .

وختمت حديثي قائـلا : "ان هـذه المؤسسة التي حضرناها جميعاً بمناسبة انعقاد مؤتمرها السنوي ، أسست من أجل تحقيق غرض كبير ، اني أرى منذ مدة طويلة ان مصير البلاد الاسلامية وقضية بقاء الاجيال المسلمة اللاحقة على الاسلام ، أو انسلاخها عنه ، ليس منوطاً بالميـدان السياسي ، انما هو منوط بالميدان التعليمي والثقافي ، وطبعاً تستطيع الجامعات والمؤسسات ومعاهد التعليـم والتربية الاسلامية ان تؤدي في ذلك دورا مصيرياً حاسماً أكثر من الاحزاب السياسية ، ومن هنالك تتأكد أهميـة جمعيتنا هذه وتقوم بخدمات غالية تكون غرة في جبين التاريخ" .

وبهذه الكلمات انتهت هذه الجلسة الاولى ، وابتدأت الجلسة الثانية في الساعة الرابعة مساء التي انتخـب فيها الاستاذ محمد الفاسي رئيساً للمؤتمر ، والاستـاذ

محمد بن البشير أمينا له ، والدكتور عبد الله عبد المحسن التركي رئيس جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض مقررا له ، وكان هذا الانتخاب موضع استحسان الجميع ، ثم ألقى الدكتور عبد الله التركي كلمته التي ضغط فيها على حب الواقعية والاخذ بها وعلى جانب العمل ـ فيما يتصل بالبحث والنقش والمذاكرة ـ مكان الرأي وعرض الفكرة فحسب ، ثم جاء دور تشكيل اللجان ، وأسندت الي مسئولية اللجنة التي شكلت من اجل العمل على ما يتصل بالجامعات الاسلامية وقضايا العالم الاسلامي والربط والتنسيق بينها .

وكان العشاء في "نادي جولف" ، وكان هناك إعداد للموسيقى والمعازف ، ولكنها أوقفت على تدخل واعتراض من الوفد السعودي ، واشترك في المؤتمر مندوب كل من المملكة العربية السعودية ، ومصر ، ولبنان ، والشام ، والعراق ، والاردن ، والكويت ، وتونس ، وافغانستان ، وتركيا ، والاتحاد السوفياتي ، ونيجيريا ، وايران ،وفلبين ، وموريتانيا ، والهند ، وباكستان ، وكنت أظن أنه ربما يحضر من باكستان رجل علم وفكر أعرفه من ذي قبل ، وعلى ذلك فيتاح للصديقين الذين فرق بينهما التقسيم والوضع السياسي الشاد بين البلدين ، أن يلتقيا ويتبادلا عواطف الحب والاخوة ، فلم تعد هناك طريق الى مقابلة العلماء الباكستانيين الا هذه المؤتمرات الدولية ، لكني تأسفت جدا وصدع قلبي حينما علمت ان الاستاذ السيد أبابكر الغزنوي نائب رئيس جامعة بهاولبور هو الذي كان مدعوا في هذا المؤتمر من الباكستان ، وكان قد قدم من لندن ليحضر المؤتمر الاسلامي المنعقد بها ، ثم يحضر ويثنى بالحضور في هذا المؤتمر ، فوجئ باصطدام السيارة في لندن ، ولم يبك من الجراحات ، وكانت بين أسرته وأسرتنا

علاقات دينية وروحية قديمة ، وقد تكرم علي في العام الماضي بارسال كتاب وضعه في ترجمة والده العظيم فضيلة الشيخ محمد داؤد الغزنوي أمير جماعة أهل الحديث في باكستان ، وقد وجه الي رسالته ذكر فيها حنينه الى لقائي وقضاء بعض الوقت عندي لايام ، ولو كتب الله له هذه الرحلة لكان مبعث سرور للاخوين واعتبرنا هذا اللقاء مما يزيد في قيمة هذه الرحلة الطويلة ، ولكنه كما يقول الله تعالى : "اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" انه سافر الى الآخرة بدل أن يسافر الى "الرباط" وما عند الله خير وأبقى ، غفر الله له ورفع درجاته ! .

تشكيل اللجان ، والحضور في المآدب

12 مايو ، يوم الاربعاء :

واشتغلت اللجان بوظائفها بعد الفطور ، واللجنة التي عهد بها الي يشاطرني فيها العمل الاستاذ المهدي بنعبود ، وعبد الكريم الخطيب ، وممثل لبنان الشيخ محمد مهدي شمس الدين مبعوث المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، ومندوب موسى الصدر القائد الديني للشيعة في لبنان ، وهو من المثقفين ثقافة واسعة يمتاز بطلاقة اللسان ، وله المام جيد باللغة الفرنسية ، وهو من علماء الفلسفة وعلم النفس البارعين ، وقد قام بالضبط والتحقيق لنهج البلاغة ، وقد أهدى الي نسخة بتحقيقه ، وكذلك يجدر بالذكر من العاملين في هذه اللجنة الدكتور عبد الهادي التازي (المعهد الوطني للبحث العلمي) والشيخ مصطفى العلوي .

وأقام لنا مأدبة غداء رئيس المجلس البلدي بالرباط في فندق صومعة حسان ، و "صومعة حسان" بناء تاريخي عريق ذو منارة شامخة ، سمي الفندق باسمه ، والفندق

نموذج رائع للفن المعماري الاندلسي ، وعقدت اللجنة بعد صلاة العصر جلستها الثانية ، وكانت حفلة العشاء من جانب امين مصلحة البناء والاسكان والسياحة في فندق صومعة حسان وتعرفنا هناك بطعام أندلسي يدعى بـ "بسطيلة" وهو يعد من ألذ الاطعمة التي تصنع بلحم الدجاج واللوز مغلوفين في أوراق خفيفة من الطحين المصفى من القمح .

لقاءات وزيارات

13 مايو ، يوم الخميس :

وزارنا اليوم في الصباح الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله رئيس مكتب التنسيق بين الاكاديميات التي تقوم بعمل التعريب والترجمة ، التابع للجامعة العربية ، الذي مقره الرئيسي بالرباط ، ويصدر هذا المكتب مجموعة تقاريره باسم "اللسان العربي" في مجلد ضخم ويصلنا بانتظام ، وكان يشف حديثه عن اطلاعه الواسع ، وعنايته الكبيرة بالقضايا والافكار الاسلامية ، وكان اللقاء ممتعاً نافعاً .

وكان غذاء اليوم في "نادي جولف" من جانب وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية لكني آثرت على الحضور فيه اتمام المقال العربي الذي بدأته منذ أيام في 10 مايو باسم : "نحن الآن في المغرب" ، ولكنه لم يتم من كثرة الاشغال وزحمة الاعمال ، ومن المقرر أن تنعقد جلسات اللجان في المساء .

وكانت اليوم تلاوة القرآن الجماعية في منزل الفقيد الكبير الاستاذ علال الفاسي الذي يحتفل البلد كله بعام وفاته ، وكان المخلصون له والمعجبون به يتوافدون الى منزله ويعزون ابنه ، وطلب الى الاستاذ ابوبكر القادري – وهو من المعجبين به اعجاباً كبيرا – ان احضر هذه المناسبة ولو لوقت قصير ، فلبيت ذلك وقصدت منزل

المرحوم ، فرأيت هناك جماعة من حفاظ القرآن الكريم ـ الذين كانوا سبعة أو أكثر ـ يتلون سورة الكهف متمايلين بقراءة "نافع" في لهجة مغربية خالصة ، وبعدما انتهوا من تلاوة سورة الكهف بدأوا يقرأون قصيدة البردة التي يهتم المغاربة بقراءتها عند هذه المناسبات .

وتوجهنا من هنا الى "مسجد نور" الذي ينعقد فيه كل يوم خميس اجتماع دعوي تحت اشراف جماعة التبليغ في الرباط ، وتحدثت انا والشيخ أبوبكر الجزائري ، وكان المسجد غاصاً بالحاضرين ، ولقونا في حب وحماسة واخوة هي شعار "جماعة التبليغ" وأميرها في المغرب الشيخ الحمداوي مدرس في مدرسة ثانوية ، ويمتاز بالفهم والاتزان في الفكر ، وقد سبق لقاؤنا معه فور وصولنا الى الرباط ، وقد أخذ منا العهد بالحضور في اجتماعه .

أشغل يوم في الرباط

14 مايو ، يوم الجمعة :

وكان اليوم أشغل يوم من بين أيام اقامتنا بالرباط في يوم الثلاثاء او الاربعاء ، سألتني السيدة حبيبة البورقادي احدى المثقفات الفاضلات المتصلة بوزارة الثقافة اتصالا وثيقاً ، عما اذا كانت هناك فسحة في وقتي لالقاء كلمة على دعوة من وزارة الثقافة ، فوعدت لها بذلك دون تفكير طويل ، شبه الوعد ، وقد كنت بدوري أود أن أضع أفكاري وانطباعاتي امام طبقة مثقفة جادة ، وقد سألتني عن موضوع الكلمة فقلت سيكون الموضوع "أزمة العالم الاسلامي الحقيقية" ، وقررت الوزارة أن يكون حديثي في اليوم الآتي يوم الجمعة بعد صلاة العصر ، وبدأ ينشر راديو الرباط هذا النبأ منذ يوم الاربعاء ، وحينما علمت أن هناك

جلسة نهائية للمؤتمر قبل العصر تقدم فيها قـــرارات وتوصيات اللجان الجانبية للدراسة والموافقة ، شغلني التفكير في القضية ، وعدت أفكر كيف أغيب عن الحضور عن هذه الجلسة العامة لالقاء حديثي الذي وعدت به ، والذي سيستمر الى ما بعد المغرب أو قبـــل المغرب ، وأصبحت في تردد حائر ، وقد عرضت القضية على الرئيس المحترم ، والامين الموقر ، فقالا : أرجـــو أن الاجراءات الضرورية ستنتهي قبل هذا الميعاد ، وسأحاول أن أحضر الحديث بنفسي ، ولكني ظللت في حيرة من الامر ، لاني قد جربت مثل هذه الجلسات وعهدي بها ، أنها تتخطى الميعاد ، فقد تلتوي قضية من القضايا وتستقطب اهتمام المؤتمرين من اجل كثرة المساهمين والمناقشين وطول الاخذ والـــرد .

واتصل بي أمين السفارة الهنديـــة الاول بالامس تليفونياً وقال : ان سعادة السفير يريد أن يقيم مأدبة غداء على شرف قدومكم ، ولكن اعتذرت عن ذلك ، لاني كنت قد علمت ان الجمعية المضيفة لنا بدورها ستقيم مأدبة غداء تكريماً للضيوف وقلت : اني سأقابل سعادة السفير في الصباح ، وقد كان من السهل جدا أن أعتذر عن الحضور لو كانت المأدبة المقامة غدا من جانب أي وزارة أو شخصية، ولكنها من جانب الجمعية التي عقدت المؤتمر ، وقامـــت باضافتنا .

وتوجهنا الى السفارة الهندية في الساعة التاسعـــة صباحاً وقابلنا السفير ، الذي بدا لنا بنغالياً ، وكـــان رجلا لائقاً جادا ، اسمه "كرها" وطال بنا المجلس وتحادثنا ملياً ، وتوجهنا من السفارة الى القنصلية البريطانية لاخذ التأشيرة ، فقد كان من المقرر أن أسافر من الرباط الى لندن ، وشغل ذلك وقتاً طويلا ، وعلمنا أخيرا أنه لا حاجة

لنا الى التأشيرة ، وأنه سيسمح لي بالاقامة لوقت مطلوب من مطار لندن على الوقت لاني من سكان "الكومنولث" ، (Commonweath) وآسفنا أننا لم نتمكن من مصاحبة رفقتنا في خروجهم لزيارة الآثار التاريخية في المدينة ، وانهم سوف يزورون ضريح السلطان محمد الخامس ومسجده ، وذلك ان اليوم كان آخر يوم في الرباط ، وكانت الاشغال مزدحمة ، ولم يسمح الوقت لشيء الا أن استعد للجمعة ونتوجه الى المسجد ، وكان من المقرر أن نصلي الجمعة في مسجد السنة .

ودخلنا المسجد فرأينا الناس منصرفين الى تلاوة القرآن الكريم بالجهر ، وجلست انتظر زوال الشمس ، ولكن بدئ بأذان الخطبة فور الزوال ، ولم نر أحدا يصلي السنة ولا أدري اذا كان ذلك غير معمول به في هذا البلد ، وألقى الخطبة أحد مندوبي المؤتمر العالم المصري الشيخ سليمان حسن ربيع (عميد كلية اللغة العربية بالازهر الشريف) وهو يمتلك ناصية الكلام وسلاسة اللسان ، وقدرة الارتجال كغالب علماء مصر ، وكانت الخطبة طويلة ولكن بليغة .

وتوجه الضيوف بعد الصلاة ليتناولوا الطعام والذي كان مهيأ في فندق الفردوس الذي يقع على مسافة 20 ـ 25 ميلا من الرباط على ساحل المحيط الاطلسي ، ومررنا في الطريق بمدينة "سلا" التاريخية الشهيرة السعيدة التي يتكرر ذكرها في تاريخ المغرب ، والتي كانت موطن العلماء والصلحاء ومدفنهم ، ووصلنا الفندق وكان جميلا جدا على طراز الفن المعماري الاندلسي ، وزاده جمالا وبهاء موقعه ، وكان منظر البحر رائقاً ، وكانت مقاعدنا في جهة البحر على أذرع منه ، وكانت الامواج تداعب الساحل ، وكنت غارقاً في الذكريات القديمة والعواطف المتدفقة ، ومن خصائصي التي اصبحت محنة لي أن الشعور التاريخي

والذوق الدراسي لا يفارقني في أي مكان وأوان ، ويطلان على عقلي وفكري بظلاله الكثيفة ، وقد تحول هذه الظلال بيني وبين التمتع بمناظر جذابة ، وكان الدكتور محمد اقبال قال بلسان حالي أو صور موقفي اذ قال :

"ان شعري عبارة عن البحث عن القيم القديم وان حياتي عبارة عن البحث عن المفقود" .

كان البحر مواجاً أمامي ، وكنت غارقاً في دنيا التصورات والحقائق الماثلة ، وأتذكر طموح العرب ومغامرتهم ، الذين كانوا لا يبالون بالجبال والبحار والصحاري والقفار ، والذين اجتازوا هذا البحر الاطلسي ، وجعلوا راية الاسلام تخفق في اسبانيا ، وكنت أردد شطر البيت المشهور للشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال : "ان البحار كانت ملعباً لسفن العرب" ، ولكن أين الحاضر من الغابر وأين الحال مما قال" .

ورجعنا الى الفندق الذي كنا نازلين فيه نلقي على "سلا" نظرة حب وحنين من بعيد .

وابتدأت الجلسة الخامسة للمؤتمر متأخرة في الساعة الخامسة مساء ، وجاءني الاخ العزيز ظهور السلام الندوي وناجاني في الجلسة ، وقال ان وزير الثقافة يقول انه يود ان يشهد الحفلة التي ستتحدثون فيها لكنه سيحضر بعد ذلك جلسة لجنة ، فيود أن تكون كلمتكم لساعة واحدة ، وذهب ظهور السلام يطلب السماح من رئيس المؤتمر لغيابي عن هذه الجلسة ، فسمح بذلك وقال لابد من حضور الاستاذ محمد الرابع الندوي حتى ينوب عنكم .

وكانت الحفلة في قاعة المحاضرات التابعة لوزارة الثقافة ، ودخلنا أولا في حجرة وزير الثقافة ، وقابلناه ، ثم تفضل هو ووزير الاوقاف والشؤون الاسلامية في قاعة

المحاضرات وبدأت الحفلة ، ونهضت السيدة الفاضلة حبيبة البورقادي ، وقدمت كلمتها التي اعدتهـا في التعريف بكاتب السطور ، وقد جاء في المقال تعريف لائق بوالد كاتب هذه السطور العلامة الشريف السيد عبد الحـي الحسني الامين العام الاسبق لندوة العلماء ، وأشادت بصورة خاصة بكتابه "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" في تراجم أعيان الهنود وأعلامهم .

واستهللت حديثي فقلت ان موضوع الحديث الـذي أريد أن ألقيه اليوم ، لو قدمناه سؤالا وتساءلنا ما هي أزمة العالم الاسلامي الحقيقية اليوم ، فستختلف (CIRICIS) الاجابة عليه وتكون له عشرات الاجوبة ، فقد يقول قائل انها الازمة الاقتصادية ، ويقول الآخر انها الازمة السياسية ، ويقول الثالث انها الازمة الثقافية ، ولكني أقول انها الازمة الايمانية والاخلاقية المحضة ، ان أكبر ما يعانيه العالم الاسلامي من الفراغ والعوز ، وأشد ما يقاسيه من أزمات ، هي الضعف الايماني والفساد الخلقي والتزعزع العقائدي ، ألق نظرة على العالم الاسلامي وانظر ماذا يعوزه ، انه غني بكل شيء ، يقدر عدد المسلمين في العالم نحو 600 000 000 ، وان العالم الاسلامي يملك احسن الاراضي الزراعية الخصبة الممتدة على رقعة واسعة ، الزاخرة بكل نوع من الثروات المعدنية والطبيعية والنباتية والحيوانية والانسانية ، انه يملك ذخيرة هائلة من البترول الذهب الاسود الذي هو دم الجسم الصناعي والمدني ، ولا يعوزه التعليم والثقافة والذكاء والكفاءة ، ووسائل النشر والاعلام والدعاية والصحافة والخطابة ، ومعاهد التعليم والتربية ، ولكنه رغم ذلك كله لا يملك ثقلا في الميزان العالمي ولا دورا مؤثرا في اتجاهات العالم وأوضاعـه وحوادثه ، وتجرد الى حد كبير عن قدرة النفع والضرر

التي تستوجب احترام الامم والملك ولا يستطيع ان يقرر مصير الآخرين ، وانما هم الذين يقررون مصيره ، وليس له في المسرح العالمي الا دور المتفرج الصامت ولا يمكن أحدا ان يصوره تصويرا ابلغ وادق واشمل واعمـــق مما جاء في الحديث النبوي الشريف :

"يوشك ان تداعى عليكم الامـــم كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، فقال قائل او من قلة نحن يومئذ ؟ ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت(1)" .

وقلت اني حين ارد هذا الوضع الذي يعيشه المسلمون الى الازمة الايمانية فإني لا أريد به مفهوم الايمان الكلامي والاعتقادي الذي يدخل به الانسان من دائرة الكفر الى دائرة الاسلام ، وتجري عليه الاحكام الشرعية ، ويكون مخاطب الآداب الدينية ، أما الايمان بحقائق الاسلام الاساسية ، فإن المسلمين لا يزالون يفوقون جميع الامم على ظهر البسيطة في هذا الجانب ، ولو وضع ايمانهم في كفة ، وايمان أمم العالم اجمع في كفة أخرى لرجحت كفتهم ، وانما أريد بذلك تلك الحرارة الايمانية والصلابة العقيدية والايمان كـــل الايمان بكون الاسلام هو الوسيلة الوحيدة للنجاة والخلاص ، والفوز في الدنيا والآخرة ، التي كانت مزية الصحابة رضي الله عنهم ، الامر الذي تغلغل في احشائهم ، وملك عليهم عقولهم ، وجرى منهم مجرى الدم والروح .

أما الاسلام عندنا اليوم ، فقد عدنا نراه ديانة من الديانات الكثيرة في العالم ، تفوقها في بعض الاشياء ،

---

(1) رواه أبو داؤد عن ثوبان رضي الله عنه .

وتبزها في الصدق والصحة ، أما عند سلفنا الصالح والرعيل الاسلامي الاول فقد كان الاسلام هو الدين الحق وحده ، وما سواه جاهلية وظلمة وظلم ، وأوهام وأساطير ، ونحن ننشد باسم الاسلام ان يسمح له بالبقاء طبق مبدأ التعايش السلمي وأن يسمح للمسلمين بالحياة في كل بلد وقطر ، كما يسمح لكثير من الدواب والحيوانات في العالم بالتوالد والتناسل والبقاء ، وقد تتولى الحكومات الابقاء على بعض السلالات الحيوانية ، وتصدر في ذلك أحكاماً خاصة ، وكما يحافظ في المتاحف على كثير من الاشياء الاثرية التي لم تعد تنفع اليوم وفقدت مصلحتها وقيمتها ، كذلك ينبغي ان يسمح ببقاء الحضارة الاسلامية والآداب الاسلامية ، وقوانين الاحوال الشخصية للمسلمين .

أما ايمان الصحابة وأسلوب تفكيرهم فيما يتعلق بالاسلام ، فقد كانا يختلفان عن ذلك كل الاختلاف ، يمثل ذلك ما قال رسولهم لقائد قواد الفرس ووزير الحربية عندهم "رستم" عندما سأله ما الذي جاء بكم الى هذا البلد ؟ فقال : "الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام" كان الاسلام عندهم شعلة جوالة تحيل الاديان والمعتقدات كلها رماداً وتذيبها كالشمعة وتخففها كالندى ، لا تقف في وجهه الجبال ، ولا تحول دون مده البحار ، وقد قرأتم قصص المغامرة والفتح والانتصار لقادة فتح المغرب كعقبة بن نافع ، وطارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، ان هذا الايمان هو الذي ملأ جوانح قلوبهم وعمر طوايا صدورهم ، ونور زوايا عقولهم ، فكانوا نارا محرقة على اخضر الكفر ويابسه وسيفاً بتاراً لاباطيل الجاهلية فكان كما قال الدكتور محمد اقبال : "انفلقت لصدمتهم البحار ، والصحاري ، وانكمشت لهيبتهم الجبال" وكانوا يرون البحار ملعباً لسفنهم كما ينظر

اللاعبون اليوم الى ميدان الهوكي والكريكت أو كرة القدم ، كنت أتغذى اليوم في فندق الفردوس وأتذكر جرأة هؤلاء القادة الفاتحين المغامرين ، وشجاعتهم وبطولتهم المثالية ، الذين قذفوا خيلهم في البحر الاطلسي ، ووسعوا حدود الدولة الاسلامية الى أوربا .

وكذلك لا أريد بالاخلاق ، الاخلاق والسلوك الظاهري ، فإن ذلك لا ينقص المسلمين ، وانهم يملكون من ذلك كمية فائضة ، ولكني أريد الصلابة الخلقية والاستقامة السلوكية والمبدئية ، وايثار المصالح الدينية على الاغـــراض الشخصية ، والسمو عن التضحية بالمبدأ ، لمنفعة مؤقتة ، وعن الاتيان بما يأباه الضمير ، ويشمئز منـــه القلـــب ، واستعذاب التضحيات في سبيل الحق مهما كانت كبيرة غالية ، فلو رحنا نزن أنفسنا بهذا الميزان ورأينا أنفسنا بهذا المنظار لوجدناها بك ووجدنا قادتنا وزعماءنا قـد بلغ بهم الانهيار الخلقي والتزعزع السلوكي الى المساومة على عرض الامة وشرفها ، والوطن وكرامته ، ولم يعد الصواب الدكتور محمد اقبال حينما قال عن هذه الطبقة :

"ان شيخ الحرم(1) هذا هو الذي قد يبيع كساء أبي ذر ، ورداء أويس القرني ، وملاءة سيدتنا فاطمة الزهراء بلقيمات ودريهمات" .

ومن هنالك فان أزمة العالم الاسلامي الحقيقـــة وقضيتها الحساسة هي الانحطاط الخلقي والايماني ، ولا أمل في خير ما لم يزل هذا الوضع .

ورجعنا الى الفندق ، ثم حضرنا لمدة قليلة المجلس التنفيذي للجمعية ، ثم عدنا الى حجرتنا ، وكان العشاء

---

(1) المراد من يمثل الاسلام والمسلمين ، من الزعمـــاء والملوك وعلماء الدين .

عند مولاي مصطفى العلوي وكان مجلس الطعام قد جمع بين نخبة الاصدقاء الذين لم يزد عددهم على 5 أو 6 ، على رأسهم نائب رئيس جمعية الجامعات وعلامة المغرب ومحققها العظيم الحبيب بلخوجة عميد كلية الزيتونة في تونس ، وكان الاخوة كلهم يتصلون بالدراسة والتدريس ، فتطرق الحديث الى طلاب الكليات والجامعات وعـــدم اجتهادهم وقلة بضاعتهم في العلم ، وأرجع العلامة الحبيب بلخوجة ذلك الى الاساتذة الجدد الذين يتميزون بالسطحية وعدم اجهاد النفس ، وسرد في ذلك قصصاً عجيبة ، دلتنا على أن هذا الداء لم يعد داء بلادنا وحدها ، وانما عم في البلاد العربية أيضاً عموم الوباء ، وقد أثر ذلك على النظام التعليمي من الرأس الى أخمص القدم .

الحضور في حفلة التأبين للاستاذ علال الفاسي في الدار البيضاء والتوجه الى مراكش ـ 15 مايو يوم السبت :

وكان من المقرر اليوم ان يتجه الركب بعد تناول الفطور صباحاً الى مراكش ، وقد طلب الي أن أتوقف قليلا في الدار البيضاء ، وأحضر كممثل لجمعية الجامعـــات الاسلامية حفلة التأبين التي كانت الحلقة الاخيرة مـــن الحفلات التي عقدت على وفاة الاستاذ علال الفاسي ، واستجبت لذلك من اجل العلاقات التي كانت تربط بيني وبينه ، وبسبب الحب والاعجاب اللذين أكنهما للمرحوم في قلبي ، وقد خصصت الجمعية سيارة لي ، ستكون تحت أمري واستخدمها كيف أشاء الى آخر عهدي بالمغرب .

ودخل الاخوة كلهم الدار البيضاء ، وذهبوا لساعتهم الى الفندق وجلسوا على مائدة الغداء وتوجهوا بـــعد الطعام الى مراكش ، وصليت الظهر في جامع الامـــام محمد الخامس وألفيت هناك طالباً صغير السن وتقدم الي

قائلا : هل انت هندي ، فقلت مالك وللهند ، قال في الهند لنا اخوان في الله ، وكان هناك في فناء المسجد شباب قابلوني في حب وحماسة وذكروا الدعاة والاسلاميين الذين يعيشون اليوم وراء الاسوار ، ولم أدر ما هو السبب في اعتقالهم والزج بهم في السجون ، ولكن ذلك لم يكن غريباً عندي ، لان جميع البلاد الاسلامية تعيش هذا التناقض العجيب ، وسمع التلميذ الصغير الذي لقينا على الباب حديثنافقرأ على الحال "احسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون" ، قلت يا أخي انك تبدو ذكياً مثقفاً ، وسأسجلك في مذكرتي ، فقال : أبدا ، قلت هل تخاف السجن ، قال لا ولكن أخاف السمعة والرياء ، وكان يتعلم في مدرسة قريبة من المسجد ، جاء يصلي الظهر في الاجازة المتخللة ، وانتهيت من الصلاة اذ وقع علي بصر احد من اخوة جماعة التبليغ الذي استمع الى حديثي في "فاس" وكان يسمى علياً ولكن الناس يدعونه "علي ما شاء الله" لان ما شاء الله على طرف لسانه دائماً ، وذهب بي الى دكانه ، وجددت الوضوء هناك ثم توجهت الى حفلة التأبين .

وكانت الحفلة في قاعة شعبية على شارع الجيش ، وكانت قد ضاقت بالناس ، وكان كثير من الحضور واقفين خارج القاعة ، وكانت تدوي بالهتافات بتحبيذ الاستاذ المرحوم علال الفاسي حيناً بعد حين ، وكان يتلى مقال حول افكار المرحوم ونظرياته وخدماته السياسية وخلفياتها ، وكان المقال ذا تحليل علمي دقيق يسلط الضوء على الوضع السياسي للبلد ومراحل ارتقاء الشعور والفكر السياسي .

ثم دعيت لالقاء كلمتي ، وبدأت حديثي فقلت : انه يؤسفني جدا أنني زرت المغرب حين كان الاستاذ علال

الفاسي قد غادره الى جوار ربه ، وقد صدق الشاعر العربي:

اذا زرت ارضاً بعد طول اجتنابها

فقدت صديقي والبلاد كما هيا

ثم ألقيت الضوء على ثلاثة جوانب من جوانب حياته :

قلت : اني أقدره تقديرا كبيرا ، انه بدأ حياته كعالم ديني ، كان قد تخرج من جامع القرويين ، وحصل العلم جالساً على حصير المسجد والمدرسة ، فكان علمه راسخاً ودراسته عميقة، ونظره نفاذا ، وانه فيما أعلم لم يتجرد عن ذوق الدراسة والمطالعة الى آخر عمره بالحياة ، وان الاشغال السياسية لم تقف حاجزا بينه وبين دنيا العلم والدراسة والتدريس ، كما حدث مع الكثيرين ، بل كانت ثقافته القديمة هي منبع محاولاته التحريرية وولائه الوطني ، وجهوده وجهاده في سبيل الاستقلال ، وان هذه المزية يشاطره اياها العلماء المؤمنون في الهند الذين قادوا حركة التحرير في بلدهم فكانوا علماء الدين وقادة حرب التحرير في وقت واحد .

ومزيته الثانية أنه درس الانظمة والفلسفات السياسية الجديدة دراسة عميقة فلم تكن معلوماته غير مباشرة SECONOHAND ولم يتخلف عن ركب الحياة ، واني أعلم أنه كانت له آراء ونظريات خاصة ، وقد وضعت حول حياته كتب في اللغة الفرنسية والانجليزية وأرجو أن سلسلة هذا التأليف ستبقى وتمتد .

ومزيته الثالثة انه كان له اتصال ومعرفة بالهند وعلمائها ومؤلفيها ومفكريها اكثر من علماء البلاد العربية الاخرى ، ولاسيما مفخرة الهند حكيم الاسلام احمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ، الذي كان معجباً به اعجاباً كبيرا ، ويثني عليه كثيرا ، وكان شغوفاً بكتابه

"حجة الله البالغة" ، وقلما كان يلقاني ولا يذكر "حجة الله البالغة" ، وكان يحله المحل الارفع فيما يتعلق بعرض مقاصد الشريعة وأسرارها ، وكذلك كان يشيد بذكر الدكتور محمد اقبال كثيرا ، وكان يحفظ شيئاً كثيرا من الترجمة العريضة المنظومة لشعره .

وكان هذا الحديث موضع الاستحسان في الاغلب ، وقال لي الاستاذ أبوبكر القادري وهو من تلاميذ الاستاذ علال وزملائه ، ان هذا الحديث أضاء بعض جوانب جديدة من حياة المرحوم ، وقد نشر في "العلم" لسان حال حـزب الاستقلال خلال اقامتي بالمغرب .

وبعد ما انتهينا من القاء الكلمة توجهنا الى مراكش . التي تقع من هنا على نحو 200 ميل ، ووصلنا عشاء الى "العمالة" التي هي مقر حاكم مراكش ، وعلمنا هناك أننا سننزل في "فندق القرية" وهو فندق في مكان هادئ جميل في مراكش ، ونزلنا فيه وقضينا الليلة في راحـة وهدوء .

زيارة الآثار التاريخية في مراكش
16 مايو ، يوم الاحد :

وكنت قد قررت أني سأقوم برحلة مستقلة الى مدينة مراكش التاريخية ، اذا لم يكن هناك مجال لزيارتها في البرنامج الذي اتخذته جمعية الجامعات الاسلامية ، لان زيارة المغرب تبقى ناقصة بدون هذه الزيارة ، ولكن من حسن الحظ أن الجمعية بدورها قد ادخلت ذلك في برنامجها، وكان من دواعي ذلك ان جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب يقيم الآن في مراكش ، وكان قد تكرم بدعوة ضيوف المؤتمر الى حفلة غداء اقامها على شرفهم ، وكان مـن

المرجو زيارته ، على كل فاغتنمت زيارة يوم واحد لمراكش .

اختط مراكش السلطان الطموح المجاهد يوسف بن تاشفين ، مؤسس أسرة المرابطين الذين يدعون بالملثمين أيضاً ، كانت ولادته في 400 هـ قبل وفاة محمود الغزنوي بـ 21 سنة ، وحكم 47 سنة ، وتوفي في 500 هـ عن نحو 100 من عمره ، وكتب التاريخ والسير مشحونة بمناقبه وفضائله ، ومآثره واخلاقه وبقصص حياته التي كان ملؤها الطهر والصفاء ، والنزاهة والعفاف ، والزهد والكفاف ، والعزم الراسخ والايمان الصادق ، وكانت بطولته الكبرى هي معركة "الزلاقة" التي كانت في 12 رجب 479 يعني بعد فتح "سومنات"(1) بـ 64 سنة ، وقد استنجده لمحاربة المسيحيين الذين لا تفتر غاراتهم وهجماتهم على الحكومة الاسلامية العربية الاديب الشاعر العظيم ، البطل المغوار المجاهد السلطان المعتمد بن عباد ، حينما حاولت الحكومة المسيحية في "طليطلة" أن تقضي للابد على الحكومة الاسلامية التي كانت الرمز الاخير على عظمة الاسلام في اسبانيا ، والمعقل الاخير للحضارة الاسلامية العربية ، وحينما ادرك المعتمد بن عباد ـ الذي كانت بطولته ومغامرته كلمة اجماع عند الصديق والعدو ـ انه لا يستطيع اخضاع هذا العدو القوي ، ارسل الى السلطان يوسف بن تاشفين يستنصره ، رغم أن اعضاء الحكومة ، ومستشاري البلاط المحنكين حذروه من عواقب هذه المساعدة وقالوا : ان

(1) المعبد الهندكي الاكبر في الهند ، الذي دخل فيه اسكندر الاسلام محمود الغزنوي فاتحاً ، وكسر صنمه الاكبر ، وقد حاول سدنته ان يصرفوه عن ذلك وعرضوا عليه ثروة هائلة كقيمة للاقتناع ، فرفض ذلك قائلا : "لا احب ان اشتهر ببائع الصنم ، انما احب ان اشتهر في التاريخ بكاسر الصنم" .

الملوك الذين يمدون يد العون والمساعدة ، لا يرجعون الى بلادهم بعد ان تضع الحرب أوزارها ، اذا فإن استدعاء يوسف بن تاشفين معناها الحرمان من الحكم وضياع السلطة ، وكان رد المعتمد على ذلك ما يدل على غيرته الاسلامية المتأججة ، الذي يجدر بأن يسجل بماء الذهب ، قال : "أن يرعى أولادنا ابل العرب المراكشيين خير من ان يرعوا خنازير الصليبيين" ، يعني ان الحرب لو أسفرت عن كوننا مستعبدين للعرب الذين هم اخواننا في الدين ، خير من أن نظل عبيدا أذلاء للمسيحيين ، وقد هزم يوسف بن تاشفين المسيحيين في معركة الزلاقة هزيمة شنيعة جعلت منارة من رؤوس القتلى وجعلت كل أسرة مسيحية تبكي على قتلاها ، وسوف تبقى مأثرة يوسف بن تاشفين هذه غرة في جبين التاريخ ، وكفيلة بأن تدخله في قائمة المجاهدين الكبار والفاتحين الابطال في العالم ، لكن الذي كان نقطة سوداء في صفحة بيضاء هو انه هجم على المعتمد بن عباد بعد عدة اعوام وجاء به أسيرا الى مراكش ، وحبسه في "اغمات" وذلك على اغراء(1) متكرر من ضباطه الذين تحطبت أفواههم وتلمظت شفاههم للثروة والمدنية الزاهرتين الزاهيتين في اشبيلية ، وقرطبة ، وعاش المعتمد في حبسه عيشة غيرة وإباء وشمم ، حتى تخلص من حبس الحياة وانتقل الى جوار ربه وفسيح جناته ، وله قصص مؤلمة

(1) ويرى بعض المؤرخين الناقدين انه اقدم على ذلك من أجل صيانة اسبانيا من خطر نفوذ المسيحيين ، ولم يكن هناك طريق الى ذلك الا ان تدخل اسبانيا تحت اشراف حكومة المرابطين القوية المتماسكة ، وان لا يكون الخطأ الذي ارتكبه احمد شاه الابدالي في الهند حيث رجع من الهند ادراجه بعدما دال للمسلمين من المرهتة المعتدين ، وكسر شوكتهم .

وأبيات رقيقة مرققة قالها في هذه الايام من حياته ، لا ينساها تاريخ الادب العربي ، والمؤرخون لسان واحـــد على فضل المعتمد وشجاعته المنقطعة النظير وعظيم مروءته وشهامته .

ومراكش مدينة الآثار التاريخية ، وظلت مدة طويلة عاصمة المغرب الاقصى وكانت مقر الخلافة في عهد أسرة الموحدين ، والعاصمة لها مغناطيستها لا في داخل البلد وحده ، بل في العالم المعاصر أيضاً ، انها تجذب رجال الفضل ، ونوابغ الفنون ،وائمة العلوم والوجهاء والنبلاء ، والصناع والموجدين من كل نوع ، جذب المغناطيس للقطع الحديدية ، حتى المشائخ واهل القلوب واليقين ، الحريصين على خدمة خلق الله ، وارشادهم وتوجيههم الى ما ينفعهم في دنياهم وعقباهم ، يؤمون العواصم ـ حرصاً على افادة كبيرة ، ومكاسب كثيرة ، في مدة قليلة ، والحصول على نتائج خيرة ـ رغم ما تموج به من انواع المفاسد التـــي بسببها يجعلونها مراكز جهودهم الاصلاحية ، وهذا مـــا يؤكد تاريخ بغداد ، وتاريخ غرنيي ودهلي ، وتاريخ قرطبة ومراكش ، ومن هناك نجد في كل مكان في مراكش أضرحة العلماء والمشايخ ، واطلال مدارسهم وزواياهم ، وقصـــور الملوك والسلاطين أولي المنعة والقوة ، والشوكة والابهة ، وقد أهدى الى احد الاصدقاء الافاضل كتاباً باسم "الاعلام بمن ورد مراكش من الاعلام" دلتني دراسته على ان هذه المدينة كانت في عهودها الزاهرة منتجع أئمة العلـــوم والفنون ، وكبار الاولياء والصالحين ، ومرمى أبصار ذوي الحاجات من كل نوع ، ومحط الناس من كل حدب وصوب .

ولم يكن الاسبوع الكامل ليكفي لزيارة هذه الآثار ، فضلا عن يوم واحد ، قد كان أمير جماعة التبليغ في الرباط الاستاذ الحمداوي وعدني أنه سيقدم مراكش ويعينني على

زيارة الآثار القديمة والامكنة التاريخية ، وقد اخطر هو بقدومي الى مراكش ، للشاب المثقف الصالح شهاب عبد اللطيف محمد ، الذي قصد وطني "دار الشيخ علم الله الحسني" التي تقع على غلوة من مدينة راي بريلي "في ولاية اترابرديش الهند" ، يزورني منذ مدة طويلة ، والشاب ذو اطلاع واسع على مدينة مراكش وما يقع فيها من آثار ، فحضر للفندق صباحاً هو والاستاذ الحمداوي مع تاجر كبير في المدينة يملك مصنع نسيج الثوب ، وخرجنا لزيارة الآثار على سيارته ، ولم يكن عندي من الوقت الا الفترة ما بين الصباح الى الظهر ، فحاولنا أن لا تضيع علينا لحظة منها وأن نزور من الآثار ما يمكن زيارته في هذا الوقت القصير .

وقد زرنا من أضرحة العلماء والصلحاء ، ضريح مفخرة المغرب القاضي عياض مؤلف كتاب "الشفاء في تعريف حقوق المصطفى" ، وضريح الامام السهيلي شارح "سيرة ابن هشام" ، وضريح محمد بن سليمان الجزولي صاحب "دلائل الخيرات" ، ومن أضرحة المشايخ وأولياء الله ، ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ، وضريح صاحب الغار ابو يعقوب يوسف بن علي ، ومن أضرحة الملوك والسلاطين ضريح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، منشئ مدينة مراكش ، وأضرحة الملوك السعديين ، وقد دعونا الله أن يغفر لهم ويسامحهم ، وهذه المقابر تقع في امكنة خضراء ، وتقوم عليها مبان رائعة ذات رسوم ونقوش بديعة ، وزرنا ضريح مولاي سليمان أيضاً ، وهو من اجداد الملك الحالي ، واما من المساجد والمدارس فزرنا اطلال مسجد المرابطين ، الذي حول فيما بعد الى مسجد الموحدين ، وهو من بناء يعقوب المنصور الموحدي ، باني الرباط ، ومررنا بمجسد علي بن يوسف الذي كان يحتضن مدرسة تداني جامع القرويين ، وزرنا مدرسة

ابن يوسف التي كانت في عهد بني مرين ، وكذلك شاهدنا مسجد يعقوب بن منصور السعدي .

ومن بين القصور الملكية ، رأينا قصر الباهية ، الذي بناه وزير السلطان مولاي حسن والسلطان عبد العزيز احمد بن موسى الحبشي الاصل ، في عهده الزاهر ، وتجلت في بنائه شهامته ورحابة صدره ،وندى راحته ، فجاء آية في البناء والهندسة ولا يزال محط السياح والزوار منذ اليوم الاول ، يتوافد اليه الناس يزورونه من اقاصي الارض وأدانيها ، وكان هذا الوزير ذا نفوذ كبير وصاحب كلمة عليا في المغرب كله ، وكان هذا القصر مقر امانته ، وبيت حريمه أيضاً ، وقصيدة البردة مرسومة على جدرانه ، وزيارته تعطي صورة واضحة عن عيشة الامراء والوزراء ومدنيتهم في عصرهم ، وزرنا المنارة ، وهي بركة عريضة طويلة بنيت في عهد السعديين ، ولم يستطع المهندسون في يومنا هذا ان يتوصلوا الى طريق جلب الماء الى هذه البركة فيملأ فيها الماء اليوم على طريقة متبعة ، وبجانبها بستان الزيتون يرجع تاريخه الى هذا العهد ، ورأينا السور الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين من أجل التحرز من غزو الموحدين ، وذلك على ايعاز من ابن رشد فيما يقال ، ورأينا باب الرباط الذي كانت الاحكام الشرعية تجري فيه ، ورأينا منتزه أكدال ، وهو منتزه كبير يقع بجانب القصر الملكي ، وفيه بركتان كبيرة وصغيرة ، وبستان الزيتون .

وقد سجلنا فيما يتعلق بالقصور شيئاً كان جديداً علينا ، أن معظم القبور القديمة وضعها يدل على أن أقدام الموتى الى القبلة ، وقال لي مرافقي شهاب بن عبد اللطيف ان ذلك هو الافضل في المذهب المالكي ، ولكن ذلك لم يقنعني لان الامام مالك نفسه وجميع القبور في البقيع

وجنة المعلي ، وقبر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أيضاً تتوجه الى القبلة .

ورجعنا عن زيارة هذه الآثار ، والقلب مؤمن بفنـــاء العالم ، وزوال الملك والسلطان وضعف الانسان ، وطول عمر البنيان ، حتى كل عقلي ، وتعب فكري ، من مثل هـــذا الانفعال والتأثر ، وعادت الدنيا تبدو كأنها لعبة الصبيان ودمية الاطفال ، وعادت الحياة يخيل الي كأنها أضغاث أحلام ، وصدق الشاعر الاردي حينما قال "كم محت الايام والليالي آثار القادة والفاتحين والنوابغ والعبقريين ، وكم أكلت الارض كبارا كانت عظمتهم تناطح السحاب .

ثم جاء بنا مرافقنا الحاج محمد بن ادريس الى بيته، الذي يقع في قاعة بني ناهيد ، وطينا الظهر وتغذينا ، وقد دعا الى الطعام بعض أصدقائه الآخرين ، واسترحنا قليلا ثم رجعنا الى الفندق .

وكانت بعد صلاة العصر ، حفلة المتخرجـين في دار الحديث الحسنية ، وتلا فيها سكرتير الملك رسالته ، ثم ألقيت كلمات ، وكنت قد عزمت على أن أرتحل مساء اليوم بعد المغرب الى الدار البيضاء ، ومنها الى لندن ، وقد أبرقت الى الاخ العزيز مسرور احمد اللكهنوي في لنـــدن بقدومي اليها ، لكن قابلني أمين جمعية الجامعات الاسلامية بعد انفضاض الحفلة وألح علي أن لا أغادر المغرب غدا ، لان الملك يقيم مأدبة ، وسيكون لقاء مع الملك ، كذلك أصر علي الاقامة الاستاذ محمد بن البشير ، فاضطرني ذلك كله الى أن أفسخ عزمي ، ونويت المكوث ليوم واحد نية مترددة ، رجاء أن يكون اللقاء مع الملك مفيدا ، يتيح لي فرصـــة حديث معه والقاء كلمة فيما يهم الاسلام والمسلمين في هاته الديار .

ورجعت الى الفندق ، وكنت متضايقاً جدا ، وأقول

في نفسي مرة بعد أخرى ، قد تعجلت في تغيير رأيي وتبديل برنامجي ، هل يكون هذا التأجيل نافعاً أم لا ، واشتد في هذا الشعور ، حتى عزمت على أني سأستميح الشيخ محمد الفاسي بالرحلة ، وأتوجه الى لندن في الصباح المبكر ، وأركب من الدار البيضاء الطائرة التي حجزنا فيها المقاعد ، ولكن ما تمكنت من لقاء أحد من المسئولين ، وما رأيت أن أغادر دون إخطار المسئولين بذلك ، على كل أجلت الرحلة للغد ، ولكن قضيت الليلة في ضيق وتردد .

المأدبة الملكية ، وزيارة الملك

17 مايو ، يوم الاثنين :

وبدا لي ان استكمل زيارة بعض الآثار التي فاتتني زيارتها بالامس ، وقد ذكرت عددا مما رأيته اليوم في السطور الماضية مع ما ذكرت ، من الآثار والامكنة ، ورغم ذلك لم أستطع ان أوفي زيارة مراكش حقها ، ان معظم سياح أوربا يؤمون مراكش ، ومن دواعي ذلك طقس مراكش في الشتاء والشمس التي يحرصون عليها حرصاً كبيرا ، ثم كثرة الآثار التاريخية والقصور الملكية ، ومما زرته اليوم كان جامع الكتبية ، الذي هو أكبر الجوامع وأشمخها ومن اجملها في المغرب ولكنه اليوم محتاج الى الترميم والاصلاح ، ويقولون انما سمي بذلك لانه كان هنالك ثمان مائة دكان للوراقين والتجار في الكتب .

منارة الكتبيـة :

هذه المنارة ذات سبعة طوابق ، وارتفاعها 270 قدماً وسعتها 50 قدماً ، على حين أن منارة قطب الدين ايبك الشهيرة في الهند ، ارتفاعها 238 قدماً ، وسعتها

47 قدماً ونصف ، وقد بنى هذا المسجد قبل منارة قطب بأربع سنوات .

وبما أنه كان من المقرر اليوم الحضور في المأدبة الملكية ، تعجلنا في الرجوع الى الفندق ، حتى نحضرها مع جميع الرفقة ، وكانت المأدبة في بستان ، وكانت حياض الازهار وصفوفها ، تمثل الجمال وتبعث الروعة والسحر ، مما كان يدل على ان اراضي هذه البلاد مخصبة مغلة ، وقد كانت مقاعدنا في فناء بناء ، وكان الخدم الملكي مشمرين زيهم لتقديم النزل الينا ، وكانوا يبدون سودانيين ، وكان مراقبهم أيضاً قائماً ، وكان يتلقى الضيوف سكرتير الملك الاول احمد بن سودة ، وكان الطعام خمسة أنواع مغربية خالصة ، موضوعاً في صينيات كبيرة ، توضع كل صينية بين كل اربعة أو خمسة رجال ، كانوا جالسين مجتمعين ، وكان اللحم هو محل الصدارة في الطعام ، وكانت ترفع الصينية بعد قليل ، وتوضع أخرى .

ولما انتهوا من الطعام رجعوا الى الفندق ، وتوجه الركب بعد صلاة العصر الى قاعة المجلس البلدي ، وتناولوا فيها الشاي والكعك ، ثم توجهنا الى القصر الملكي ودخلنا فيه ، فأقمنا في دائرة مثلثة ، وشرف الملك وسلم وعرف كلا من الضيوف إلى الملك رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي ـ وهو أستاذ الملك ـ وكان الملك يصافح كل واحد ويستخبر أحواله ، ولما انتهت سلسلة اللقاء والتعارف والتحية ، كلفت أن ألقي كلمة نيابة عن جميع الاخوة الضيوف .

وبدأت حديثي قائلا : "إني أكتفي بالتحية التي علمنا اياها نبينا الاعظم وجدكم الاجل محمد صلى الله عليه وسلم (أرواحنا فداه) أعني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وكذلك أكتفي لكم بالدعاء الذي يدعوه الخطباء

في يوم مبارك في ساعة مباركة وعلى منابر المساجد كل يوم الجمعة أعني : "اللهم انصر من نصر دين محمد صلى الله عليه وسلم واجعلنا منهم" .

وأضفت قائلا : انني أسعد بتبليغ رسالة كريمة اليكم عن العالم الاسلامي ، أراها أمانة في عنقي ومسئولية على عاتقي ، وهي ان المسلمين اليوم في مشارق الارض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الاسلامي نجم جديد ، يعلقون به آمالهم ، انهم يعيشون وضعاً مردياً عصيباً عجيباً ، يحتاجون فيه الى قائد عصامي ، مؤمن ألمعي ، يمتاز باخلاصه ويقينه ، وعزمه الراسخ وقلبه الواثق ، وقد صور القرآن هذا الوضع تصويرا بيناً معجزاً فقال : "حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه" .

إن المسلمين يعيشون مثل هذا الوضع ولا يرون ملجأ من الله الا اليه ، وقد كان يطلع من أفق العالم الاسلامي في الماضي شخصية عملاقة عصامية ، وتحول مجرى التاريخ لكن ذلك يحتاج الى الايمان والاخلاص ، والشهامة والغيرة ، وصدق الولاء والوفاء وانما ينهض بذلك من يريد أن يخدم الاسلام ويرضي ربه ، ويقنع ضميره ، ويؤدي مسئوليته سامياً عن الاغراض السياسية والاغراض الشخصية ، وكان الناس يتطلعون في هذا العهد الاخير الى والدكم العظيم السلطان محمد الخامس ، ولكن لم يمهله الاجل ، ومن يدري اذا كان الله قد كتب لكم هذا الشرف ، ويريد أن يسوق اليكم هذه السعادة" .

ثم استماح عميد كلية اللغة الشيخ سليمان حسن ربيع المصري بإلقاء حديثه ، فألقى كلمة موجزة يدور جلها أو كلها حول الازهر الشريف ، ودوره وخدماته ، وأعقب بعض

الاخوة الآخرين الذين أبدوا عـن حبهـم العميق للملك واخلاصهم له .

ثم ارتجل الملك خطبة كانت فصيحة تجري في صميم العربية ، تتخللها متون بعض الاحاديث مما دل على أنه يدرس الحديث الشريف ، وان له نظرة على دواوين الاحاديث ايضاً ، استهل حديثه بالتنويه بوالده وتربيته له وقال انه أخذني بتربية أشربت في قلبي حب العلماء واحترامهم ، وذلك الذي جعلني أتشرف في وقت بلقاء هذا العـدد الكبير من العلماء من مختلف البلاد والاقطار ، ثم ذكـر العلماء بمسؤوليتهم ، وضغط على الجانب الخلقي والسلوكي في الدين ، ودعا الى تعليم اللغات والعلوم الغربيـة ،

ويبدو أن جلالة الملك في 40 ـ 45 من عمره ، وهو ربعة من الرجال ،كأنه قضيب ، يعلو وجهه الشرف والتواضع ، يرتدي الزي المغربي وينطق بالعربية الفصحى ، وينحدر من أشرف سلالة ، كل ذلك جعله موضع الحب والاحترام ولبعض العاملين في مجال الدعوة والعمل الاسلامـي ملاحظات ، ووجهات نظر ، وتمنيات وترقبات ، يبعثها الحب للاسلام والحب لهذه الاسرة الشريفة التي انقذت البلاد في فترات حالكة ، ولم نستطع أن نتوصل ـ من أجل ضيـق الوقت وكثرة الاشغال ـ الى المبررات والمصالح التـي تحمل جلالة الملك على انتهاج سيـاسة خاصـة وان نحللها تحليلا حيادياً ، ولكنه رغم ذلك يستطيع أن يكسب شعبه ، وأن يكون شخصية محترمة في أعين الجميع اذا أمده الاخلاص والعزيمة ، ووفق الى جهود مخلصة صحيحة في صالح الدين والوطن ، وقد كان أول حاكم مسلم بعث قواته لمساعدة العرب في حربهم مع اسرائيل عام 1964 م ، ولكن جمال عبد الناصر لم يسمح باستخدامها ، وكذلك قاد "المسيرة الخضراء" ضد اسبانيا ، فيما يتعلق بالصحـراء

المتنازع عليها بين المغرب واسبانيا ، ونجح في ذلك نجاحاً موفقاً ، وزاد اعتباره في أعين الشعب ، ومن هناك فشلت محاولة قتله ، واغتياله مرتين ، ووضع القائمون بمكيدة الاغتيال السلاح .

والفضل في ذلك كله يرجع الى والده الصالح السلطان محمد الخامس ، الذي وجدنا كل طبقة من طبقات الشعب المغربي لساناً واحداً في الثناء عليه ، وذلك أنه كان نزيهاً تقياً ، عاش حياة فوق كل شبهة ، ثم انه قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة جريئة وثبت أمامه ثبوت الجبل الراسي ، ولم يرض بمساومتهم رغم ما قدمه الفرنسيون في ذلك من اغراءات وطالب باستقلال المغرب كله ، وتمسك بمبدئه إلى آخر لحظة ، مما سبب له أن يعيش في المنفى منذ 53 م الى 55 م

وقد اشتهرت نكتة مليحة في عهد الاستعمار الفرنسي على طرف الالسنة في المغرب "السلطان محمد الخامس في القمر" "السلطان محمد الخامس في القمر" ، وكان الناس يقولون في لهجة ملؤها الثقة والقوة ، حتى صار الفرنسيون يفكرون فيما اذ كان ذلك صحيحاً ، ثم لما تحرر المغرب وتقلد زمام الحكم غمرت الناس موجة فرح وسرور ، ولو مد الله في عمره ، وكتب له أن يحكم سنوات أخرى ، لكانت المملكة المغربية ، دولة اسلامية قوية تستأثر بكثير من المزايا التي تجردت عنها معظم البلاد العربية الاسلامية ، لكن المغرب حرم هذه الشخصية المتميزة ، وتوفي الى رحمة الله بعد عملية جراحية عادية ، وعادت المسئولية على عاتق ولده الشاب الذي يعتبر ذا شخصية محنكة ذات عزيمة وطموح متفق عليها عند الشعب ، وهو يحكم هذه المملكة المخصبة الواسعة المترامية الزاخرة بالثروات الطبيعية ـ التي وسعت حدودها الصحراء التي حصلوا عليها بعد

جهود وجهاد ، ويربو عدد سكانها على مليون ونصف ، يجمعهم دين واحد وهو الاسلام ومذهب فقهي واحد وهو المذهب المالكي ـ وإنها تواجه تحدي الحضارة الغربية ـ بحكم كونها على باب الغرب ـ اكثر من اي بلد اسلامي أو عربي آخر مما يحوجها الى ذكاء أكثر ، وجرأة أوفر ، ويزيد القضية تعقيدا أن العصر عصر القلق والاضطراب والثورات وان كثيرا من القوى والحركات الداخلية والخارجية تمارس نشاطاتها السلبية .

وتوجهنا ليلا الى الدار البيضاء متأخرين رغم محاولة السرعة ، ووصلنا في الساعة الواحدة ، وقد حجز لنا امين الجمعية غرفات في فندق "مرحبا" ، فنزلنا فيه ، واسترحنا قليلا ، ثم بدأنا نستعد للرحلة ، وقد سبقنا الى الدار البيضاء الاستاذ الحمداوي ، فذهبنا معه الى مقر جماعة التبليغ وألقينا كلمة موجزة ، ثم توجهنا الى المطار ، وأقلعت الطائرة في الساعة العاشرة نهارا الى لندن ، وهبطت على مطار " طنجة " لنصف ساعة تقريباً ، ويقيم في طنجة على قرب من تطوان العالم المغربي الضليع والمفكر الكبير الأستاذ عبد الله كنون عضو رابطة العالم الاسلامي ، ورئيس رابطة علماء المغرب ، ولا يستطيع أن يبرح مكانه من أجل اشتداد المرض به ، وقد دعاني لزيارة طنجة وتطوان ، ولكن قلة الوقت لم تسمح بزيارة هذه المدينة الساحلية التي هي من اجمل المدن في المغرب ، واكثر من ذلك قلقاً وأسفاً ان صديقنا الفاضل وزميلنا القديم الاستاذ محمد العربي الهلالي يقيم في تطوان ولم يحضر الرباط من أجل وهن صحته ، وقد وجه إلي في حب وإخلاص دعوة الحضور والاقامة لايام في تطوان لكن لم أتمكن من استجابة دعوته والان تمر طائرتنا بطنجة ، فكانت لنا فرصة ذهبية للقائه على المطار ، لكنه قد غادرها من ذي قبل الى اسبانيا للتداوي .

وأخيرا وداعاً لارض المغرب التاريخية وتحية لهـا من زائر شرقي ، وعليها رحمات رب المشرق والمغرب الذي ربط بينهما بالاسلام ربطاً حتى أصبحالؤلؤتين في عقد واحد ، وتحية لأبنائها البررة الذين غمرونا بحبهم ، وتلقونا بالاخوة الاسلامية وكرم الوفادة العربية ، والذين لا يزالون على الوفاء والولاء للرسالة التي حملها اليهم الدعاة الاولون والقادة السابقون .

نحن الآن فى المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد !

فقد سافر سماحة أستاذنا الكبير السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، أثناء وجوده في الربوع المقدسة ، الى المغرب العربي الاقصى لاول مرة على دعوة من المسئولين عن رابطة الجامعات الاسلامية ، في الاسبوع الاول من شهر جمادى الاولى عام 1396 هـ المصادف شهر أيار عام 1976 م ، للحضور في مؤتمر رابطة الجامعات الاسلامية الذي عقد في الرباط في الفترة ما بين 11 و 17 أيار ، لدراسة المشكلات التعليمية والتربوية ووضع حلولها ، ومسائل المعاهد الكبرى والمؤسسات التعليمية في العالم الاسلامي .

وقد نظم رحلته هذه معالي الشيخ محمد صالح القزاز أمين عام رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ورجا من سماحة الشيخ الندوي أن يمثل رابطة العالم الاسلامي في هذا المؤتمر ، فسافر مع مرافقه العزيز الاستاذ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس قسم الادب العربي بدار العلوم ندوة العلماء الذي مثل ندوة العلماء في هذا المؤتمر ،

وانتهز سماحة الشيخ الندوي فرصة وجوده في هذه البقعة الاسلامية الطيبة والبلد العربي الجميل ، فخاطب أهله وتحدث إليهم بما فاض به قلبه المؤمن من عواطف

الحب والاخوة وبما هبت عليه من نفحة الايمان والحنان يوم وطئت قدماه ارض المغرب الاسلامي العربي ، كشأنه في جميع الاقطار والبقاع التي زارها فخاطبها بكلام رقيق جميل في أسلوب الداعية الحكيم ، والعارف بقضايا الشعوب ومصاير الامم ، ومن الذي لم يقرأ "إسمعياته" يوم زار مصر والشام ، والحجاز والكويت وايران ، ولم يطلع على محاضراته يوم وصل الى لندن وبرلين وجنيف وباريس ومدريد ،

أما هذه الكلمة القيمة التي هي بأيدينا والتي بدأها في الرباط فانها تفوق اخواتها في فصل الخطاب والضرب على الوتر الحساس والبيان الساحر الخلاب ، وهي إذا كانت تشرح الوضع الحالي السائد على الاقطار الاسلامية والدول المسلمة ، وما دخل في قلوب المسلمين من يأس من عودة الحياة الاسلامية الصحيحة والمثل العليا إلى مجتمعهم ، ومن تشاؤم بالفساد الشامل الذي حل ببلادهم وغزا عقر دارهم ، فهي تقدم لها الحل الوحيد لازالة هذا الوضع وتنير لها الطريق الى الغاية المشرفة .

كما أنها تنطوي على عصارة تاريخ المغرب الاسلامي الاقصى وصلته بالدعوة الاسلامية والبطولة العربية ، والكفاح المخلص ضد كل واغل ودخيل ، الامر الذي لا يتسنى لدارسي تاريخ هذه البلاد ألا بعد مراجعات طويلة وعكوف طويل على دراسة الموضوع .

ونرجو أن تعم فائدة هذه الكلمة القيمة جميع القراء والدارسين ويتحقق بها ما أراده المؤلف الكبير من إبداء الرأي وبذل النصح للشعب وأولياء الامور وقادة الفكر ورجال التربية والتخطيط الحضاري ، وما ذلك على الله بعزيز .

مدير تحرير مجلة "البعث الاسلامي"

سعيد الاعظمي الندوي

17 جمادى الثانية 1396 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قدرت لي زيارة أكثر الاقطار الشرقية الاسلامية في شرخ الشباب ، وفي فجر الحياة وظهرها ، وتأخرت زيارة المغرب الاسلامي العربي الحبيب ـ لحكمة يعلمها الله ـ إلى أن دنا الاصيل ومالت شمس الحياة الى المغرب .

لقد تأخرت زيارة المغرب الحبيب جسدياً وبحساب الشهور والاعوام ، ولكن لم تتأخر زيارته والتعرف به في ظلال العلم والدراسة ، وفي رحاب المكتبة الاسلامية العالمية الواسعة ، التي يشغل فيها المغرب الاسلامي حيزا كبيرا وله فيها ركن خاص هو من أغنى أركان المكتبة وأجملها ، وقد عشت في أطيافه ، وعشت مع أعلامه ونوابغه ، ردحة من الزمن ، وتقلبت بين مدنه وعواصمه ، وجوامعه وجامعاته ، وحكوماته وحضاراته ، وبطولاته ومغامراته ، وعثرته ونهوضه ، وسايرت ركب تاريخه الطويل المليء بالالوان المختلفة ، والاحداث الجسيمة ، التي تمر بها جميع الشعوب الحية الكريمة القوية الراجحة في ميزان الشعوب والامم الغيورة على رسالتها وشخصيتها ، المحاطة بالاعداء والمنافسين من كل جانب .

وقد حتم على المغرب لكونه على مقربة من أوربا وعلى آخر حدود العالم الاسلامي في جهة الغرب ، أن يكون مرابطاً دائما ، فليس "الرباط" هو المدينة الواحدة التي هي عاصمته اليوم ، بل المغرب كله الرباط ، وقد أثبت التاريخ أنه كان رباط الفتح .

وكان المغرب المدخل الذي دخلت منه الكتيبة المؤمنة

تحت قيادة طارق بن زياد في الاندلس ، ونقطة انطلاق للمد الاسلامي والاشعاع العلمي العقلي في أوربا ، فكانت دولة ، وكانت حضارة ، وكان علم ، وكان عقل ، وأصبحت الاندلس أمنية الفاتحين ، وأغنية الشعراء والمتغزلين ، وموضوع المؤرخين والجغرافيين ، وكانت جنة الدنيا ، وسوق العلم ، ومثابة العلماء ، ومنتجع الشعراء، وكانـــت ذات مدرسة في الفقه والشعر والادب ، والفلسفة والفن المعماري ، وكانت فيها "مرسية" و "بلنسية" و "جيان" و "شاطبة" و "قرطبة" و "اشبيلية و "غرناطة" وكانت فيها مدينة "الزهراء" وقصر "الحمراء" .

والاندلس مدينة للمغرب الاقصى في فترات كثيرة من تاريخها ، فكان المغرب سندا لها ومددا ، يغيثها في أحلك فترات التاريخ وأدقها ، بأبطال مجاهدين وقادة مغامرين ، ينقذونها من الاحتضار والانهيار ، ويمنحونها قسطاً من الحياة والقوة نخص بالذكر منهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بطل وقعة "الزلاقة" (سنة 479 ه) ، وهـــو الذي اختط مدينة "مراكش" والقائد المجاهد أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي بطل معركة "مرج الحديد" (591 ه) وهو الذي بنى "رباط الفتح" تذكارا لهذا الفتح المبين ، والمجاهد العظيم علي الشريف الحسني (762 ـ 847) جد الملوك السجلماسيين العلويين في المغرب الاقصى وجد الاسرة الحاكمة اليوم ، دخل عدوة الاندلس للجهاد مرارا ، ودعى الى الملك فزهد فيه ، وقال لا أريد أن أحبط عملي وأشوبه بمنفعة دنيوية .

وعفوا أيها المغرب الحبيب من الانتقال السريع الى الاندلس ، ودخولها في هذا الحديث الخاص بالمغرب الاقصى ، فقد هبت علي نفحة من هذا الفردوس المفقود وجاءني أريج من أجوائه العطرة وتربته الندية الزكية التي

اختلطت بها دموع المسلمين ودماؤهم ، وتجلت فيها عبقريتهم وإنسانيتهم في أروع مظاهرها ، فالاندلس على غلوة من المغرب إذا وقف الواقف على مضيق جبل طارق ، ولقرب المكان حكم ليس للبعد .

كان المغرب الاسلامي والعربي الذي نشأ وتكون في أواخر القرن الاسلامي الاول دليلا على انسانية رسالة الاسلام ، وعلى قدرته العجيبة على إخراج الاقاليم والشعوب من إطارها الضيق ومن زاوية الخمول والخمود التي عاشت فيها قروناً طويلة ، وفي بعض الاحيان آلافاً من السنين ، الى العالم الفسيح ، ومن الانطواء على نفسها والانشغال بالمنافسات القبلية والحروب الداخلية ، والنظرة الضيقة إلى الحياة وإلى الكون إلى مسايرة الركب الانساني السيار ، بل وإلى قيادته وتوجيهه أحياناً وتمثيل دور خاص في بناء الحضارة وتكوين العلوم ، والعناية بالقضايا البشرية ومشكلاتها وأزماتها ، فقد عاش هذا الحزام الشمالي الغربي الممتد من ليبيا الى المحيط الاطلسي ، مفصولا عن العالم المتحضر المتطور المائج بالحركات والنشاطات والدعوات الدينية والمدارس الفكرية ، لا شأن له بالعالم الخارجي ، لا تتصل به الامبراطورية الرومانية الا من الناحية العسكرية ، والاستعمار الروماني ، ليست له شخصية متميزة ، ولا رسالة كريمة ، ولم تعرف هذه البلاد المنتشرة من طرابلس الى مراكش في تاريخ القرن السادس والسابع الميلادي في أكثر الاحيان الا بالقسوة والفروسية وشدة الشكيمة ، وتمرد أهلها على الفاتحين ، حتى ضرب بسكانها الاصليين ـ ومعذرة الى من ينتمي الى هذه الاصول الكريمة ـ المثل في الوحشية والنخوة فكانت كلمة "البربر" و "البربرية" مرادفتين لهما في المعاجم والآداب واللغات الكثيرة ، ولم يعرف عنها نشاط حيوي الا التشاغل بالحروب الداخلية وشدة التمسك بالعادات القديمة والتقاليد

القبلية ، لا لغة راقية ، ولا حضارة رقيقة ، ولا دين معقول ، ولا مدينة مشهورة ، وكل ما أثر عنها من المدنية والعلم في العصر القديم اندثر ودفن تحت ركام المباني وأنقاض المدن .

وكان دليلا كذلك على قدرة الاسلام العجيبة على إشعال المواهب ، وتفتيق القرائح ، وتنمية الملكات ، وتحريك الميول والرغبات ، وتوجيهها الى غايات نبيلة وجهود هادفة ، ومشاريع بنائية إيجابية ، والنظرة الواسعة المتفتحة الى العالم والى الشعوب والامم ، وتسخير الطاقات واستخدام الوسائل لصالح الانسانية ، فلما هبت على هذه الناحية القاصية المجهولة لكثير من المطلعين والدارسين والمؤرخين والجغرافيين نفحة الاسلام ، قفز الى الوجود عالم جديد ، كل شيء فيه جديد .

وقامت فيه مدينة "قيروان" و "فاس" و "مكناس" و "مراكش" و "باجه" و "سوسة" و "سرقسطة" و "جاية" و "تلمسان" و "تونس" أنجبت أفذاذا في الحديث والتفسير ، والفقه والتصوف ، والشعر والادب ، والنقد والتاريخ ، والفلسفة وعلوم الحكمة ، يطول استقصاؤهم، وكانت فيها مدارس كجامع القرويين ، وجامع الزيتونة ، وتخرج منها ودرس فيها أئمة في العلوم والفنون ، وخلفوا آثارا باقية بقاء اللغة العربية والعلوم الاسلامية .

وقد خاض المغرب الاسلامي العربي معارك دامية وتعاقبت فيه حكومات ودول ، وأسر وعشائر ، وواجه اضطرابا في الحكم وانتقال القوة والقيادة من يد الى يد ومن بيت الى بيت ، ولكنه لم يزل محافظا على شخصيته الاسلامية وطابعه العربي والحضاري الجميل ، وعلى هيامه بالعلم والثقافة ، فلم تركد ريح العلم ولم تفتر حركة التدريس والتأليف في فترة قصيرة ، ولم تزل الجوامع والمدارس

تبلغ رسلتها وتؤدي أمانتها ، ولم يزل العلماء الربانيون والدعاة المخلصون يقولون كلمة الحق ويدعون الى سواء السبيل ، فكانت هذه التطورات والانقلابات سطحية عابرة لا تمس جوهر الشعب العربي المسلم ولا تؤثر في شخصيته وعقيدته ، وكانت التحولات السياسية وتعاقب الملوك على عرش الحكم من أسر مختلفة وتبدل العواصم ومراكز الحكم لا يختلف عن انتقال الملك من يد الى يد في أسرة واحدة وتوارث الابناء للآباء ، فالدين هو الدين ، والثقافة هي الثقافة ، والذوق هو الذوق .

ثم مني أخيرا باستعمار ـ وبالاصح احتلال ـ هو من اقسى أنواع الاحتلال وأكثرها ذكاءا وشمولا ، وأدقها تخطيطاً وتصميماً ، وابعدها غايات ومرامي ، وهو الاستعمار الفرنسي يرافقه الاستعمار الاسباني في بعض المناطق ، وكان استعمارا يجمع بين الصرامة والرقة ، وبين الوضوح والدقة ، مسلحاً بأقوى أسلحة التطوير وأحدثها ، وكان يرمي الى ابادة شاملة ، إبادة فكرية ثقافية علمية حضارية ، وكان مما استعان به هذا الاستعمار في الوصول الى غاياته البعيدة ، الدعوة الى التمييز العنصري والتفريق بين العرب والبربر ، وإشعار السكان الاصليين القدامى بقوميتهم وحضارتهم وأعرافهم قبل دخول الاسلام والعرب في هذه المنطقة ، ولا ينسى الجيل الذي هو في مرحلة الكهولة والشيخوخة "الظهير البربري" الذي يدعو البربر المسلمين الى العودة الى عهدهم قبل الاسلام والى أن يحيوا لغتهم ويكتبوا بها ، فكانت مؤامرة استعمارية من أدق المؤامرات التي عرفت في تاريخ الاستعمار وأكبرها خطرا على الوحدة الاسلامية والوجود الاسلامي .

ولكن المغرب الاسلامي العربي واجه كل ذلك بشجاعة واستقامة ووعي ، وأثبت البربر المسلمون ان إيمانهم لا

يقل عن إيمان العرب ، واعتزازهم بالدين الاسلامي وحضارته وثقافتة لا يختلف عن اعتزاز العرب انفسهم بها .

وخرج المغرب بعنصريه العربي والبربري ظافـرا منتصرا من هذه المعركة ، محتفظاً بشخصيتـه الاسلاميـة العربية وبعقيدته وبلغته ، ونخوته المغربيـة ، وزال الاستعمار وأشباحه ، وجلا الفرنسيون والاسبان ، فكـان دليلا على قوة هذا الشعب وجدارته لمواجهة الاخطـار والتحديات والمشكلات والازمات ، ودليلا على تغلغل الاسلام في احشائه وجريانه منه مجرى الروح والدم وإخلاص أولئك الرجال الذين وطأوا هذه الارض في فجر تاريخ الاسلام ودعوا البربر الى ان يشاركوا العرب في سعادتهم ويأخذوا من هذه الثروة الانسانية المشتركة نصيباً غير منقوص ، ولهم أن يسبقوا العرب أنفسهم في بعض الاحيان في قوة الايمان والاعتزاز بالاسلام والتحلي بفضائلـه ومحاسنـه والقرب عند الله ، وقد أعلن رب العزة ذلك بقوله : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبـاً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم(1)" . فكان منهم علماء وزهاد ، ومربون ومصلحون ، ومدرسون ومؤلفون ، وقد انصهروا في بوتقة الاسلام كما انصهرت بعض شعوب العجم التي حسن اسلامها في بلاد العجم .

ويخوض المغرب الاسلامي العربي الآن معركة هي أشد من كل معركة حربية جربها وخاضها في تاريخه الطويل ، ومن معركة الاستعمار الاجنبي المباشر في الزمن الاخير ، فكانت المعارك الاولى التي تحدثنا بها معارك سافـرة مكشوفة يستعمل فيها السلاح وتنفع فيها الشجاعـة والفروسية ، وتقرر مصيرها التضحيات في النفوس والاموال ،

(1) سورة الحجرات ، الآية : 13 .

وينتبه ويثور لها الشعب على اختلاف مستوياته العلمية والعقلية ، فكانت حرباً بين كفر وإسلام ، ومعركة بين أبناء البلاد والاجانب .

ولكن معركة اليوم معركة صامتة هادئة ، معركة دقيقة مقنعة ، هي معركة الصراع بين فكرتين : الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية بأوسع معانيهما وآفاقهما وأبعادهما ، هي معركة نستطيع أن نلخصها في قولنا : هل يبقى هذا الشعب وهذه البلاد إسلامية ـ بكل معاني الكلمة ـ تنظر الى الدين الاسلامي كدين يكفل سعادة البشر في جميع مجالات الحياة وكدين كامل له تخطيطه الشامل للحياة والمدنية ، وصياغة للاجيال ، وسياسة للتربية ، وحق التدخل في كل قضية تمس دينه ومقاصده من قضايا الحياة الانسانية ، بل له اكثر من ذلك حق الوصاية والاشراف على سير الحياة ، وحق القيادة والتوجيه لركب المدنية ، وتنظر الى الاسلام كدين خالد دافق بالحيوية ، زاخر بالقوة يساير كل عصر بل يسبقه ويحل كل مشكلة ، بل يمنع من وقوعها في الحياة التي يسيطر عليها ، وفي البيئة التي له فيها الكلمة العليا .

أم هو دين عقيدة وايمان فحسب ، وقضية شخصية لا شأن لها بالمدنية وتخطيط الحياة وسياسة التربية والتعليم وصياغة الاجيال وفق عقائده وقيمه ومثله ، وتشريع القوانين وحق التدخل في الحياة ، فليبق المسلم مسلماً بالعقيدة والعبادة والاسم والقومية والطقوس والتقاليد عند الولادة وعند الموت ، والتخطيط هو التخطيط الغربي الشامل ، والمدنية هي المدنية الغربية في كل مظاهرها الخارجية والداخلية والشخصية والاجتماعية ، والقيم هي القيم التي يؤمن بها الغرب ودعا اليها فلاسفته ومفكروه ، والمثل هي المثل التي يقدسها الغرب ويكافح في سبيلها،

والاخلاق هي الاخلاق التي نشأت واختمرت في البيئة الاوربية التي خضعت للمادية ، وكان للمسيحية فيها أثر ضئيل ، ثم أثر فيها العصر الصناعي التكنالوجي والتسابق الاقتصادي .

ويبدو للفاحص المطلع أن الغرب استفاد بتجاربه الطويلة المريرة في محاولة القضاء على العقيدة الاسلامية واجتثاث جذورها من قرارة قلوب المسلمين وتحويلهم عن دينهم بشكل سافر والدخول في ديانة أخرى كالنصرانية كما وقع في اسبانيا ، وعدل عن فكرة التنصير الضيقة التي تثير الجماهير وتخلق مشكلات وقد تحدث موجة رد فعل عنيفة ، وذلك في ضوء تجاربه ودراساته ، عدل عنها الى خطة تجريد المسلم عن شخصيته المتميزة الواسعة ، وعن حضارته التي نشأت وتكونت في ظلال عقيدته وتعاليم القرآن والآداب والاخلاق الاسلامية ، وروعيت فيها التسهيلات لاداء واجباته وشعائره الدينية ، وكانت خاضعة لتصور اسلامي خاص للطهارة ـ وهي أكثر من النظافة وأدق ـ وموازين خاصة في مفهوم الاقتصاد والاسراف والتبذير ، وقد انبثقت هذه المدنية في شكلها البدائي والاساسي ـ لا في تفاصيلها ومظاهرها التي توسع فيها المسلمون وتأنقوا في أوج حضارتهم ورفاهيتهم ـ عن تعاليم الشريعة السمحة والسنة النبوية المطهرة .

والحضارة عميقة الجذور في اعماق النفس الانسانية وفي مشاعر الامة وأحاسيسها ، وتجريد أمة من حضارتها الخاصة التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص ، وطابع هذه الامة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة وتحديها في اطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق وفصل حاضرها عن ماضيها ، وأثر هذا التحول كان عميقاً

دائماً في حياة الامم والمجتمعات البشرية ، فانها ذابت تدريجياً في بوتقة الامم التي اقتبست منها هذه الحضارة بمعانيها الواسعة ، وكان انسلاخها عن العقيدة التي بقيت متمسكة بها سهلا .

وليس المقصود من ابراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الاسلامية وكيان الامة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة واقتباس بعض ما توصل اليه العلم والصناعة والاختراع في الغرب من وسائل تسهيل وترفيه ، وإغلاق الباب على مصراعيه ، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلا عن مطلع عـلى روح الدين وتعاليمه ، والاسلام لم يزل **ولا يزال** واسع الافق منفتح القلب والنظر في الاستفادة بكل ما يصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقال هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة العامة ، إنها تشمل الافكار والقيم والمفاهيم والمثـل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيـط المدنـي الشامل واقتباس اساليب الحياة التي لا تتفق مع تعاليم الاسلام ومعاييره في الطهارة والنظافة والاعتدال والاقتصاد والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الاسلامية ، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الاسلامية التي عاشها الرسول والصحابة والتابعون لهـم باحسان ابتعادا كلياً ، وتضفي على الامة شخصية اجنبية لا تعرف فيها الا بالاسماء الاسلامية أو بالازياء التي لا تزال بعض الشعوب العربية او الاسلامية محافظة عليها ، او عندما يرتفع صوت الاذان من منائر مساجدها ، او عندما تدخل في المساجد على قلة عدد الداخلين في بعض البلاد وكثرتهم في بعضها ، فلا يربطها بالاسلام الا خيط رقيق من عقيدة

وتقاليد دينية ، إذا انقطع هذا الخيط ـ لا سمح الله بذلك ـ انقطع كل شيء .

واعتقد أنه من الميسور جدا الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات وما وصل اليه العلم الحديث . وبين ما تمتاز به الحضارة الاسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الاسراف والتبذير والاغراق في المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات الاسلامية والمجتمعات الاسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الاعمى والارتجال ومركب النقص ، وإذا توفر عندها الذكاء والاصالة والايمان بفضل التعاليم الاسلامية والحضارة الاسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط اجمل وأفضل وأكثر جلباً للانصار واستواء للقلوب وأبعث على الاحترام والتقدير ، ويؤم هذه المدن عدد اكبر من السياح بل من قادة الفكر ورواد العلم من العدد الذي يؤمها الآن من المتنزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الاصيل من المدنية باعثاً لكثير من الاقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها وعلى الاقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الاسلامية الاندلسية التي كان لها تأثير عميق في الحضارة الغربية وفلسفتها وآدابها .

ولكن مع الاسف الشديد لم يوفق لذلك قطر واحد من الاقطار الشرقية والغربية العربية والحكومات الاسلامية ، ولم تكن عند أحدها جرأة كافية تحملها على مجرد هذه التجربة ، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الاقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية وصورة شاحبة لها ، لا تسترعي اهتمام الغربيين ولا تحرك فيهم مشاعر الاجلال والاحترام ، وانما يقولون اذا زاروا هذه المدن متفرجين أو مشاهدين : "بضاعتنا ردت الينا" .

وأشد من ذلك خطرا هو سياسة التربية والاعلام التي لا أداة أقوى تأثيرا وفعالية منها في صياغة الجيل الصاعد وتكوين عقليته ومشاعره وأخلاقه ومثله ، فانها هي المرضعة والحاضنة ، وهي المعلمة والمربية ، وهي التي تستطيع أن تنحت من أمة ذات عقائد ومبادئ ومثل ، أمة جديدة لا تتصل بآبائها الا بالولادة والدم والنسل وبالاسماء واللغة أحيانا ، بل أكثر من ذلك أمة ثائرة على هذه العقائد والمبادئ والمثل ، ترى من أول واجباتها محاربة هذه العقائد والمبادئ والمثل وازالة هذه الانقاض والركامات ، ولو استنفذ هذا العمل السلبي معظم جهدها وطاقاتها وأوقاتها وشغل البلاد والمجتمع بحرب مسعورة هي في كثير من الاحيان أشد وأطول من الحرب مع الاستعمار والعدو الاجنبي .

إنها حرب ابادة معنوية أشد خطرا على الامة من حرب ابادة نسلية أو جنسية ، لو ألهمها بعض قادة إبادة نسلية في الماضي السحيق وارتقت عقولهم وسياستهم الى التفكير فيها واستخدام وسائلها ، لتوصلوا الى غاياتهم من غير ان يشتهروا في التاريخ بالقسوة والوحشية وإراقة الدماء ، بل ربما أضفى عليهم التاريخ نعوتا وألقابا مشرقة ، ووصفوا بنشر الثقافة واحتضان العلم وتشجيع المعارف .

إن قصة القيادات في العالم الاسلامي في هذه الفترة التي تمتد على نصف قرن ، هي قصة محاربة طبيعة الشعوب الاسلامية الدينية ومحاولة التخلص منها أو التغلب عليها بكل حيلة ووسيلة ، الحرب الشعواء التي أسفرت في أكثر الاقطار الاسلامية عن الاخفاق والفشل ، ولكنها استهلكت جهود هؤلاء القادة وطاقات هذه الشعوب من غير أن تعود عليها بجدوى ، وقد كانت جهود أقل منها

تقوم على معرفة هذه الحقيقة وتقرير هذا الواقع تعود على الامة والبلاد بحاصل كبير وتوفر الوقت والجهد على هؤلاء القادة .

وقد دلت حرب التحرير في الجزائر التي استخدمت الحماس الاسلامي والايمان المودع في هذا الشعب المسلم في اجلاء المستعمر وتحرير البلاد ، ودلت المسيرة التي قادها جلالة الملك الحسن الثاني في شوال 1395 هـ ـ نوفمبر 1976 م بمقدرة وحكمة وحققت الغرض المطلوب وكان لها دوي في العالم كله ، على أن هذه الامة لا تستجيب لدعوة ولا تتحمس لها الا إذا اقترنت هذه الدعوة بصبغة دينية ومست قلوبها ومشاعرها الايمانية ، وأنها لا تفهم الا لغة الايمان والحنان التي تخاطب القلوب قبل ان تخاطب العقول ، تجربة تكررت عشرات من المرات في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه ، فلا يسوغ المنطق السليم والعقل العملي حتى السياسة الرشيدة الواعية والقيادة الحكيمة العاقلة أن تتجاهل هذه القيادات هذه الطريقة السهلة للاستفادة من هذه الشعوب وتلتجئ الى طرق وأساليب لا تتجاوب معها هذه الشعوب إلا مقهورة مغلوبة على أمرها ، وتضيع الوقت والجهد في تحويل هذه الشعوب عن طبيعتها أو مصارعتها في غير طائل ، وتكون العاقبة كما قال الشاعر :

ومكلف الايام ضد طباعها

متطلب في الماء جذوة نار

ومن هذه القيادات قيادات تحب الاسلام وتجله وتفكر في تطبيق تعاليمه في مناطق نفوذها وتتمتع باحترام الشعوب التي تحكمها وبثقتها ، ولكنها مصابة بالتكاسل والتسويف ، وضعف الارادة ، والتسامح الزائد للعناصر

المحاربة للاسلام ، وفسح المجال لها للعمل والنفوذ في مجال التربية والاعلام والصحافة ، فما يكون جزاء ذلك الا ان هذه العناصر تنتهز أول فرصة لاقصاء هذه القيادات المسلمة الضعيفة ، عن الحكم والسيطرة على الجهاز الاداري والحكومي ، وتقع هذه الشعوب المسلمة الوادعة تحت رحمة هؤلاء اللادينيين او العلمانيين أو الشيوعيين ، وتساق الى غايات وأوضاع لا تحبها ولا تتفق معها ، كما تساق القطعان من الغنم والخراف الى زريبتها بعصا الراعي ، لا تملك من امرها شيئاً ، وما ذاك الا بضعف هؤلاء القادة المسلمين وتكاسلهم وتضييعهم الفرص وتمكينهم لاعدائهم وأعداء الاسلام ، وعلى أنفسهم وبلادهم جنوا ، وهذه قصة بلاد قريبة من الارض التي نتحدث إليها وما الامر بسر حتى يحتاج الى اكتشاف .

وأرجو أن يستفيد المغرب الاسلامي العربي العزيز بجميع هذه التجارب القاسية التي مرت في تاريخ الاقطار الاسلامية الشرقية والغربية ، والحوادث التي حدثت في الماضي القريب ، وكما يقول الحديث النبوي الشريف : "السعيد من وعظ بغيره" .

ولا ينقذ هذه البلاد وهذه الامة من هذه الاخطـــار الداهمة الا القائد القوي الامين ، والبطل العصامي الذي يضحي في سبيل عقيدته ومبدئه ، بلذته وراحته ، وبكل ما يحبب الى النفس من تمتع ورخاء ، ومدح واطراء ، وملك زائل وسلطان راحل ، ولا لذة فوق لذة الايمان والكفاح لانقاذ البلاد والعباد ، وحماية الاسلام والمسلمين ، وتأمـــين مستقبلهم ، وإرضاء الله ، والانخراط في سلك المجاهدين والمجددين الذين قيضهم الله لكل فترة حالكة ومحنـــة قاسية ، وقد جرت سنة الله بأن يجزيهم بأعظم نصيب ، من شرف وكرامة ، وطيب الاحدوثة ، وانتشار الذكر في الآفاق

والخلود في التاريخ ، والمحبة في النفوس والقلوب ، يتضاءل أمامه ويتلاشى ما يطمع فيه الطامعون ، من جاه ومنصب ، وملك وسلطان ، وشهرة زائفة ، ودعايات مصطنعة .

وتحياتي العطرة وتشكراتي الخالصة لاخـواننا في المغرب الحبيب الذين غمرونا بحبهم واحتفائهم وأخوتهم الاسلامية الصادقة وكرمهم العربي الاصيل ، وكانت الايام القصيرة التي قضيناها بجوارهم وفي ارضهم الجميلة الزاهية من أجمل أيام العمر ومن أطيبها .

مطبعة الرسالة
1981